مراعاة مقتضى الحال في القرآن الكريم وجه من وجوه إعجازه

د. محمد رفعت أحمد زنجير*

* أستاذ مشارك بجامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا – كلية التربية والعلوم الأساسية – أبو ظبي.

ملخص البحث:

عرضت في هذا البحث إلى قضية بالغة الأهمية من أجل خطاب قرآني فاعل في عصرنا، وهي قضية بلاغية، حاولت جهدي أن ألم بما قال عنها السلف الأجلة، وأن أضيف إلى ما قالوا ما يمكن إضافته بهذا الخصوص.

وقد تكلمت عن أهمية مراعاة مقتضى الحال في الخطاب القرآني، وأن لها دائرتين: الأولى: حين نزوله، وقد انقضت وانتهت، والثانية: ما بعد عصر النزول إلى قيام الساعة، فعلى كل مسلم أن يقرأ القرآن وكأنه يتنزل الآن من السماء، لأنه خطاب إلهي لكل البشر على مختلف بيئاتهم.

وقد ذكرت تعريفات عامة للبلاغة، يستدل منها على ضرورة مراعاة مقتضى الحال، وتحدثت عن مقتضى الحال في تراثنا، ثم عن مآخذ على بعض الشعراء في عدم مراعاتهم أحيانا لمقتضى الحال.

وتحدثت عن مراعاة القرآن أحوال الإنسان وتكوينه الجسدي والروحي، ومراعاته لأحوال البيئة العربية التي نزل فيها، ومراعاته لأحوال الإنسانية في شتى الأزمان والأمكنة، وتحدثت عن إعجاز القرآن الكريم وصلته بمقتضى الحال.

وتحدثت عن المدارس التي تتعامل مع القرآن، ودعوت إلى اتجاه جديد في مسألة مقتضى الحال، وبينت المقصود بمراعاة مقتضى الحال في العصر الحديث، ودعوت إلى رؤية جديدة لفهم القرآن وعلومه، وعرض جديد لموضوعات القرآن يناسب العصر، وضرورة استيعاب مشكلات الإنسان المعاصر وحلها من خلال القرآن، وتحدثت عن النماذج الإنسانية الخالدة التي ذكرها القرآن، ونبهت إلى أهمية العرض الميسر لبلاغة القرآن، وتحدثت عن نظم القرآن، وعن قاعدة في إحصاء المفردات القرآنية وعلاقتها بمقتضى الحال، وعن الظروف الزمانية والمكانية وقت التنزيل.

مقـــدمة

الحمد لله الذي جعل القرآن معجزة خالدة إلى يوم الدين، تشهد بصدق سيد المرسلين، جاء بها الوحي إلى سيد ولد عدنان؛ لينقذ بها بني الإنسان على مر العصور والأزمان، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ (الفرقان:١)، وبين أن هذا الكتاب سبيل الهداية للعباد في شؤون دينهم ودنياهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ (الإسراء:٩) ونزه كتابه عن كل نقص وتحريف، فقال عز وجل: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ (فصلت:٤٢)، وتحدى جميع خلقه على أن يأتوا بمثله، فالتوت أعناقهم صاغرين، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ (الإسراء:٨٨).

والصلاة والسلام على البشير النذير الذي شهد له ربه بالنبوة والرسالة مع أميته، فكان هذا أكبر برهان على نبوته، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٥٧﴾ (الأعراف:١٥٧).

وبعد: فقد ثبت بالعقل والنقل أن كتاب الله تعالى هو الخطاب الأخير لهذا الإنسان على أي بقعة كان يعيش منذ عصر البعثة إلى يوم الدين، ولما كان ذلك شأنه كان لا بد من سؤال: لقد خاطب القرآن العرب ضمن بيئة عربية، وراعى في خطابه لهم أحوالهم المختلفة، فكان في هذا قمة لا تدانى، وحقق الغرض من نزوله حين ذاك، ولكن البيئات الإنسانية الأخرى – ونعني بها أصحاب الألسن

الأعجمية – مختلفة في عصره وعصرنا، وإذا جاز لنا القول: بأنه وافق مقتضى الحال في البيئات الأخرى من غير البيئة العربية في عصره، فكيف لنا أن نتصور أنه وافق في خطابه للعصور التي تلت عصر الرسالة مقتضى الحال، مع ما استجد فيها من تغير في الذوق واللغات ومتطلبات الحياة وواقع الناس، وما فيه من مستجدات وتغير حضاري؟ كيف يكون خطاباً عالمياً صالحاً لكل زمان ومكان، علماً أن من شروط البلاغة مراعاة أحوال المخاطبين، والمخاطبون اليوم يختلفون في أمور كثيرة عن المخاطبين في عهد الرسالة، فهل راعى أحوال المخاطبين في عصور مختلفة؟ وكيف تم له ذلك؟ وهل يجتمع الخصوص والعموم معاً؟ بمعنى هل يمكن أن يكون ملائماً لمناسبات معينة وقت نزوله، ثم ينسحب هذا على المناسبات الأخرى الشبيهة في عصر ما بعد الرسالة، وهل هذا من دلائل إعجازه؟ وما هي جهود علمائنا في هذا الخصوص؟ أسئلة كثيرة لا بد من الإجابة عنها، ومن أجلها جاء هذا البحث.

وهذا البحث مكون من تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة

نتناول في التمهيد أهمية مراعاة مقتضى الحال في الاتصال اللغوي.

- وفي المبحث الأول: مقتضى الحال في تراثنا اللغوي والأدبي والبلاغي.
- وفي المبحث الثاني: مراعاة مقتضى الحال في القرآن الكريم، وعلاقتها بالإعجاز في تراث أهل العلم.
- وفي المبحث الثالث: السعي نحو نظرة جديدة إلى مقتضى الحال في القرآن الكريم.

وبعد ذلك نذكر نتائج البحث في الخاتمة.

تمهيـــد

في حديثنا عن البلاغة ومقتضى الحال، لا بد أن نبدأ بالحديث عن عناصر الفعل اللغوي، وهي ثلاثة: المتكلم والسامع والكلام، والجاحظ من أوائل من تنبه إلى هذا، فقد (انتبه الجاحظ إلى أن الفعل اللغوي مهما كان الحيز الذي يتنزل فيه، وبقطع النظر عن مقاصد منجزه وغاياته، يقوم على ثلاثة عناصر رئيسية تمثل الحد الأدنى للبيان اللغوي، وهي المتكلم والسامع والكلام).[١]

فحتى يكون الفعل اللغوي سليماً وإيجابياً، ينبغي أن يكون المتكلم بليغاً، والسامع صاحب حس بلاغي، والكلام قائماً على قوانين اللغة والبلاغة، ومقتضى الحال من أهم خصائص البلاغة، فالبليغ هو الذي يكون كلامه ملائماً لأحوال المخاطبين، ولكل مقام مقال كما يقال، وعلى هذا لا يكون الكلام بليغاً ولو كان في ذاته غاية في الدقة والانسجام، مراعياً لقواعد النحو والصرف وجميل الكلام، إلا إذ كان مطابقاً لمقتضى الحال.

ونشير هنا إلى تشابه قوانين اللغات وتشابه الإدراكات البشرية، فقد قال أبو هلال العسكري: (ومن عرف ترتيب المعاني، واستعمال الألفاظ على وجوهها بلغة من اللغات، ثم انتقل إلى لغة أخرى، تهيأ له فيها من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له في الأولى، ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي، فحولها إلى اللسان العربي، فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لإصابة المعنى، وتصحيح اللفظ، والمعرفة بوجوه الاستعمال).[٢]

والحس البلاغي قائم في نفوس البشر في كل زمان ومكان، قال ابن قتيبة: (ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر)[٣]

---

(١) التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ص (١٨٢)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجامعة التونسية، ١٩٨١م.

(٢) كتاب الصناعتين، تحقيق د. مفيد قميحة، ص (٨٤) دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

(٣) الشعر والشعراء، راجعه محمد العريان، ص (٢٣) دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

وعليه فلا بد لمن أراد أن يخاطب العالم كله أن يكون على معرفة كاملة بأحوال الناس وبيئاتهم المختلفة، وأن يكون على إلمام كامل ومعرفة شاملة للغة التي سيستخدمها، وأن يضمن كلامه من الطاقة التعبيرية ما يجعل العقول تحتار بجماله وترى فيه جديداً في كل عصر، وأن يكون خطابه موحداً للجميع وقائماً بأغراضهم ومصالحهم وممتعاً لهم، وليس بوسع أي إنسان أو أديب فعل ذلك، فالأدب هو صورة عن نفسية صاحبه، وهو محدود بحدود الزمان والمكان، فمراعاة مقتضى الحال فيه قاصرة على المناسبة التي قيلت فيه، وينبغي أن يفهم النص من خلال ملابساته الزمانية والمكانية، ولم نعلم نصاً في التاريخ كله خاطب الإنسان من حيث هو إنسان، خطاباً يصلح لكل زمان وبيئة إلا القرآن الكريم، وهو أمر يقتضي بالضرورة الإيمان بأن هذا الكتاب هو من عند الله تعالى، إذ ليس بوسع بشر أن يفعله مهما كانت طاقاته، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ (الفرقان:٦).

ومراعاة مقتضى الحال في القرآن الكريم لها دائرتان:

الأولى: حين نزوله، وقد انقضت وانتهت، وقد كان القرآن بارعاً فيها، واستطاع نقل العرب من الجاهلية إلى الإسلام عبر تأثيره فيهم، ومراعاته لأحوالهم، ودراسة القرآن في سياق ملابسات نزوله ومعرفة حوادث السيرة التي رافقت النزول يدل على أنه قد وافق مقتضى الحال آنذاك، وحقق الغاية التي أنزله الله تعالى من أجلها.

والثانية: ما بعد عصر النزول إلى قيام الساعة، فعلى كل مسلم أن يقرأ القرآن وكأنه يتنزل الآن من السماء، لأنه خطاب إلهي لكل البشر على مختلف بيئاتهم، وهذا ما حققه القرآن – أيضا – على طريقته الخاصة، لأنه راعى مقتضيات الإنسانية وحاجاتها الأساسية في شؤونها الدينية والأخروية، وانتقى معجمه من زبدة ألفاظ العربية، فحقق لها البقاء الأبدي إلى يوم الدين.

وعليه ففي دراستنا للنص القرآني نتبع الدائرة الأولى إذا كنا سندرسه في

سياقه التاريخي، ونتبع الدائرة الثانية إذا كنا سندرسه في إطار واقعنا المعاصر، ولا تناقض بين المنهجين، فالقرآن كتاب حي لكل العصور.

وقد تركزت جهود العلماء في معظمها على الدائرة الأولى، وكانت لهم مجرد إشارات إلى الدائرة الثانية من دون تفصيل، وقد جاءت هذه الدراسة لتلقي نظرة على جهود أهل العلم ضمن الدائرة الأولى، ولتستكمل ما أشار إليه أهل العلم ضمن الدائرة الثانية، خادمة لبلاغة الكتاب العزيز، لعل الله ينفع بها الباحثين، ومنه نستمد العون والتوفيق.

المبحث الأول
مقتضى الحال في تراثنا اللغوي والأدبي والبلاغي

في تراثنا العربي حديث متناثر عن مقتضى الحال، سنحاول إلقاء الضوء عليه من خلال هذا المبحث.

أولا: تعريفات عامة للبلاغة يستدل منها على ضرورة مراعاة مقتضى الحال

للبلاغة تعريفات شتى، منها: ما ذكره العتابي، وهو يرتكز على جمال الكلام ووضوحه، وقدرة إيصال المعنى إلى السامع، حيث قال: (كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ، فإن أردت اللسان الذي يروق كل الألسنة، ويفوق كل خطيب، فإظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق).[٤]

وذهب جعفر بن يحيى في مفهوم البلاغة إلى الإيجاز حين قال لِكُتَّابه: (إن استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا). [٥]

ويفصل ابن المقفع في المواقف البلاغية طبعاً لمقتضيات الأحوال، ففي بعض المواقف يكون السكوت هو البلاغة! ويذكر الصور التي يأتي عليها الكلام البليغ، مقرراً بعد ذلك بأن الإيجاز هو البلاغة، فيقول: (البلاغة: اسم جامع لمعان تجري في وُجوه كثيرة، فمنها: ما يكون في السكوت، ومنها: ما يكون في الاستماع، ومنها: ما يكون في الإشارة، ومنها: ما يكون في الاحتجاج، ومنها: ما يكون جواباً، ومنها: ما يكون ابتداء، ومنها: ما يكون شعراً، ومنها: ما يكون

---

(٤) البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، (١/١١٣) مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الرابعة، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

(٥) المصدر السابق، (١/١١٥).

سجعاً وخطباً، ومنها: ما يكون رسائل، فعامة ما يكون في هذه الأبواب الوحي فيها، والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة).[٦]

وينبه ابن المقفع إلى أمر ذي بال، وهو أن مراعاة مقتضى الحال أساس البلاغة، وهو ما ينبغي على الأديب القيام به، فإذا قام به فلا عذر بعد ذلك لمن سخط عليه، يقول: (إذا أعطيت لكل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو، فإنه لا يرضيهما شيء، فأما الجاهل فلست منه وليس منك، ورضا جميع الناس شيء لا تناله، وقد كان يقال: رضا الناس شيء لا ينال)[٧]، وما قاله ابن المقفع غاية في الأهمية، فليس يعنينا أولئك الذين يطعنون بالإعجاز وبلاغة القرآن وملاءمته لمقتضى الحال بعد أن أقرت فصحاء قريش بالمعجزة القرآنية والعجز أمام تحديها، فليس بعد عجز فرسان البلاغة أمام القرآن مطمح لحاسد أو مغمز لطاعن، ولا سيما بعد تباعد العصور ومرور الأيام وفساد الأذواق وخراب الألسنة وتبلد الحس اللغوي عند عامة الناس.

وقد استحسن الجاحظ تعريفاً لم يسم صاحبه، وتدور فحواه حول الجمع بين سهولة الألفاظ ووضوح المعنى، حيث قال: (وقال بعضهم – وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوناه –: لا يكون الكلام يستحق البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك)[٨]

وقد تحدث الجاحظ طويلاً عن مقتضى الحال، ومقامات الكلام، يقول الدكتور حمادي صمود: (أما المقامات فهي جملة الظروف الحافة بالنص، بما في ذلك السامع نفسه، ولئن لم يضبطها صاحب البيان والتبيين ضبطاً نظرياً يأتي على أنواعها، فإن تواتر استعمالها كفيل بأن يعطي القاريء فكرة إضافية عن المراد منها، وهو – إجمالا – التلاؤم بين نوع الحديث وملابساته ونوع اللفظ،

---

(٦) المصدر السابق، (١/ ١١٥-١١٦).
(٧) المصدر السابق، (١/ ١١٦).
(٨) المصدر السابق، (١/ ١١٤).

فللجد موضع وشكل، وللهزل موضع وشكل، كما أن لفلسفي الكلام نهجاً في الأداء يختلف عن نهج النوادر والحكايات، وللإيجاز موضع، وللإطالة موضع، كما أن للتصريح موضعاً وللكناية والوحي والإشارة موضعاً آخر، وقد ترتب عن هذا الاعتبار إقراره بأن البلاغة بلاغات، والفصاحة فصاحات، معنى ذلك من الوجهة النظرية: أن الحكم البلاغي نسبي لا ينفصل عن مدى ترابط النص والسياق الذي يتنزل فيه، وقد أفضى به هذا التصور إلى حده الأقصى بأن بلاغة بعض الأجناس الأدبية تكمن في خروجها عن قوانين البلاغة والفصاحة، كما نتج عن اهتمامه بالسياق انصهار الظاهرة ونقيضها في بوتقة تصوره البلاغي العام، فالإيجاز بلاغة والإطالة بلاغة، كما أن التصريح بلاغة والكناية والوحي والإشارة بلاغة).[٩]

وبعد أن ذكرنا نبذة من تعريفات الأدباء للبلاغة، تضمنت إشارات أو ذكراً لمقتضى الحال، نعرض أهمية مقتضى الحال في التعريف الاصطلاحي للبلاغة، قال الخطيب القزويني: (البلاغة في الكلام: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته)[١٠]، يلاحظ بأن الخطيب قدم ذكر مراعاة مقتضى الحال على ذكر الفصاحة، ويضيف الخطيب – مبيناً معنى مقتضى الحال –: (وهو مختلف، فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام كل من التنكير والإطلاق، والتقديم والذكر، يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام خلافه، وكذا خطاب الذكي مع خطاب الغبي، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام، وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول، بمطابقته للاعتبار المناسب، وانحطاطه بعدمها، فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب).[١١]

وعلوم البلاغة ثلاثة، أولها علم المعاني، وقد عرفه الخطيب القزويني في قوله: (هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي يطابق بها مقتضى الحال)[١٢]، ويضيف محدداً موضوعات هذا العلم: (وينحصر في ثمانية أبواب:

---

(٩) التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ص (٣٠٢).
(١٠) التلخيص، شرح عبد الرحمن البرقوقي، ص (٣٣) دار الفكر العربي.
(١١) المصدر السابق، ص (٣٣-٣٥).
(١٢) المصدر السابق، ص (٣٧).

أحوال الإسناد الخبري، أحوال المسند إليه، أحوال المسند، أحوال متعلقات الفعل، القصر، الإنشاء، الفصل والوصل، الإيجاز والإطناب والمساواة)[١٣].

وثانيها: علم البيان، وقد عرفه الخطيب القزويني بقوله: (وهو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه)[١٤]، ويوضح الخطيب المراد بالدلالة فيقول: (ودلالة اللفظ إما على تمام ما وضع له، أو على جزئه، أو على خارج عنه، وتسمى الأولى وضعية، وكل من الأخيرتين عقلية، وتختص الأولى بالمطابقة، والثانية بالتضمن، والثالثة بالالتزام، وشرطه اللزوم الذهني، ولو لاعتقاد المخاطب بعرف أو غيره، والإيراد المذكور لا يتأتى بالوضعية، لأن السامع إذا كان عالماً بوضع الألفاظ لم يكن بعضها أوضح، وإلا لم يكن كل واحد دالاً عليه، ويتأتى بالعقلية، لجواز أن تختلف مراتب اللزوم في الوضوح، ثم اللفظ المراد به لازم ما وضع له، إن قامت قرينة على عدم إرادته فمجاز، وإلا فكناية، وقدم عليها لأن معناه كجزء معناها، ثم منه ما يبنى على التشبيه، فتعين التعرض له، فانحصر في الثلاثة)[١٥]

وثالثها: علم البديع وقد عرفه الخطيب القزويني في قوله: (وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة)[١٦].

ويوجز الخطيب الغرض من البلاغة، فيقول: (البلاغة مرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد)[١٧].

ونلحظ مما سبق ذكره من تعريف للبلاغة وتبيان لعلومها – عند أهل الاصطلاح – أن البلاغة قائمة على فكرة توظيف اللغة توظيفاً سليماً بما يلائم مقتضى الحال، فاللغة أو التعبير في خدمة الحال أو الموقف الذي يؤدى فيه، فمراعاة مقتضى الحال هي قضية البليغ الأولى في النثر والنظم على حد سواء،

---

(١٣) المصدر السابق، ص (٣٧-٣٨).
(١٤) المصدر السابق، ص (٢٣٧).
(١٥) المصدر السابق، ص (٢٣٧-٢٣٨).
(١٦) المصدر السابق، ص (٣٤٦).
(١٧) المصدر السابق، ص (٣٦).

حيث يتدخل مقتضى الحال في صناعة التراكيب (علم المعاني)، وفي دلالات التراكيب (علم البيان)، وفي تحسين التراكيب (علم البديع)، وعليه فالعمل اللغوي ليس عملاً ذهنيا منفصلاً عن الواقع والمناسبة، وإنما هو قد وجد أصلاً للتعبير عن هذا الواقع والتفاعل معه عبر وسيلة البيان، وعليه فلا بد أن تكون قاعدته الأساسية فهم الواقع وملابساته، ليكون الخطاب ملائماً له، ومحققاً للغرض الذي يريده المتكلم.

ثانيا: مقتضى الحال في تراثنا

جاء في كلام السلف أخبار صريحة تتحدث عن ضرورة مراعاة مقتضى أحوال المخاطبين، فقد قال علي رضي الله عنه – يحث على مراعاة أحوال المخاطبين ومستوياتهم العلمية –: (حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟)[١٨].

وقال عبد الله بن مسعود يبين ضرورة مراعاة حال المخاطب ونشاطه، فإذا مل وجب الإمساك عن الحديث: (حدث القوم ما حدجوك بأبصارهم، وأذنوا لك بأسماعهم، ولحظوك بأبصارهم، وإذا رأيت منهم فترة فأمسك).[١٩]

وكان ابن مسعود يطبق ما قاله، ويبين ضرورة مراعاة مقتضى الحال مستندا إلى عادة النبي صلى الله عليه وسلم في وعظ أصحابه، حيث (كان عبد الله بن مسعود يذكر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن! لوددت أنك ذكرتنا في كل يوم. قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولنا بها مخافة السآمة علينا)[٢٠].

---

(١٨) رواه البخاري موقوفاً، وفي مسند الفردوس مرفوعاً، انظر: الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير للسيوطي، (٣/٣٧٧)، دار الفكر.

(١٩) البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، (١/١٠٤).

(٢٠) متفق عليه، انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (١/٧٢)، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

والتكرار شاق ولا سيما على المستمعين إذا كانوا من أهل البيان، فقد نقل الجاحظ عن الزهري قوله: (إعادة الحديث أشد من نقل الصخر)[٢١]، ويضيف الجاحظ: (وقال بعض الحكماء: من لم ينشط لحديثك، فارفع عنه مؤونة الاستماع منك).[٢٢]

ويعلل ابن قتيبة سبب التعقيب بالنسيب بعد الوقوف على الأطلال: (ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب، لما جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلفة النساء، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب وضاربا فيه بسهم حلال أو حرام).[٢٣]

ويبين ابن قتيبة ضرورة المساواة بين أجزاء القصيدة الواحدة التي تتناول موضوعات عدة، وأن يلبي المتكلم مطامح السامعين، فيقول: (فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدّل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر، ولم يُطِلْ فيمل السامعين، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد).[٢٤]

وفي خبر يسوقه الشيخ عبد القاهر الجرجاني يبين أن كلام العرب كله مؤسس على مقتضى الحال، يقول: (روي عن ابن الأنباري أنه قال: ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس، وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشواً، فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله لقائم، فالألفاظ متكررة، والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: عبد الله قائم إخبار عن قيامه، وقولهم إن عبد الله قائم جواب عن

---

(٢١) البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، (١/١٠٤).
(٢٢) المصدر السابق، (١/١٠٥).
(٢٣) الشعر والشعراء، راجعه محمد العريان، ص (٣١).
(٢٤) المصدر السابق، ص (٣١-٣٢).

سؤال سائل، وقولهم: إن عبد الله لقائم، جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني، فما أحار المتفلسف جواباً).[٢٥]

ثالثا: مآخذ على بعض الشعراء في عدم مراعاتهم – أحياناً – لمقتضى الحال

كان العرب يدركون بحسهم اللغوي وفطرتهم السليمة ضرورة مراعاة مقتضى الحال، ولا أدل على ذلك من خبر يسوقه المرزباني، قال: (قالت امرأة لكثير: أنت القائل:

فما روضة بالحزن طيبة الثرى يمج الندى جتجاثُها وعرارُها

بأطيب من أردان عزة مَوْهِناً إذا أُوقِدَتْ بالمندل الرطبِ نارُها

قال: نعم. قالت: فض الله فاك، أرأيت لو أن ميمونة الزنجية بُخرت بمندل رطب، أما كانت تطيب؟ ألا قلت كما قال سيدك امرؤ القيس:

ألم تر أني كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تَطَيَبِ

قال المبرد: الجثجاث: ريحانة طيبة الريح برية، والعرار: البهار البري، وهو حسن الصفرة طيب الريح، والمندل: العود، وقوله: مَوْهِناً: يقول بعد هدوء من الليل).[٢٦]

هذه المرأة لم يرق لها وصف كثير لرائحة محبوبته، والمثل أمامها شعر امريء القيس، فأرشدت كثيراً إلى الطريقة السليمة في وصف رائحة المحبوبة، وذلك أن مقتضى الحال هنا يتطلب المبالغة، والشعر قائم – أساساً – على المبالغة والخيال، ومن هنا فقد أحسن امرؤ القيس من حيث قصر صاحبه، فالطيب لا يطيب المحبوبة، بل هي التي تطيبه، وكأن المتنبي قد انتبه إلى هذا المعنى حين قال يمدح أبا الفضل الأنطاكي:[٢٧]

---

(٢٥) دلائل الإعجاز، تحقيق محود شاكر، ص (٣١٥)، مكتبة الخانجي، القاهرة.

(٢٦) الموشح، تحقيق علي محمد البجاوي، ص (٢٠٣) دار الفكر العربي، القاهرة.

(٢٧) ديوان المتنبي بشرح العكبري، صححه مصطفى السقا، وإبراهيم البياري، وعبد الحفيظ شلبي،(٣/٢٦١)، دار الفكر.

الطيب أنت إذا أصابك طيبه والماء أنت إذا اغتسلت الغاسل

ووقع في مخالفة مقتضى الحال شعراء كبار مثل جرير، روى المرزباني، أنه (لما أنشد جرير عبد الملك:

أتصحو أم فؤادك غير صاح

قال: بل فؤادك يا ابن اللخناء. فلما بلغ إلى قوله:

تشكت أم حزرة ثم قالت رأيت الموردين ذوي لقاح[٢٨]

قال: لا أروى الله عيمتها[٢٩])[٣٠].

ومن أشنع ما يقع به الشعراء من مخالفة مقتضى الحال، عندما يكون في كلامهم إشارة إلى عيب خَلقي يكون الممدوح مبتلى به ولم يفطنوا إلى ذلك، يذكر المرزباني أيضا أنه قد (دخل أبو النجم على هشام بن عبد الملك، وكان قد حجبه قبل ذلك لما قال:

والشمس قد صارت كعين الأحول

فأمر بسحبه، وكان هشام أحولاً)[٣١]

وقد يقع الشاعر من حيث لا يقصد بالإساءة وهو يريد الإحسان، قال ابن رشيق: (ومن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلاً أو امرأة، لضيق الكلام عليه فيهما، وقلة الصفات، ألا ترى ما صنعوا بأبي الطيب وهو فحل مجود إذا ذكر المحدثون في قوله يذكر أم سيف الدولة:

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال

---

(٢٨) الموردون: أصحاب الإبل يوردونها الماء.
(٢٩) العيمة: شدة العطش.
(٣٠) الموشح، تحقيق علي محمد البجاوي، ص (٣٠٤).
(٣١) المصدر السابق، ص (٣٠٤).

فقالوا ماله ولهذه العجوز، يصف جمالها، وقال الصاحب بن عباد استعارة حداد في عرس)[٣٢]

ومما يستهجن لأبي الطيب مدحه نفسه في حضرة الملوك، ففي مثل هذا المقام ينبغي أن يراعى جناب صاحب الملك لا جناب المتكلم، يقول ابن رشيق في حديثه عن العتاب: (وأما أبو الطيب فكان في طبعه غلظة وفي عتابه شدة، وكان كثير التحامل ظاهر الكبر، والأنفة، وما ظنك بمن يقول لسيف الدولة:

يا أعدل الناس إلا في معاملتي ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

أعيذها نظرات منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوار والظلم

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ... وأسمعت كلماتي من به صمم

أنام ملء جفوني عن شواردها ... ويسهر الناس جراها ويختصم

وجاهل مده في جهله ضحكي ... حتى أتته يد فراسة وفم

إذا رأيت نيوب الليث بارزة ... فلا تظنن أن الليث مبتسم

فهذا الكلام في ذاته في نهاية الجودة، غير أنه من جهة الواجب والسياسة غاية في القبح والرداءة، وإنما عرض بقوم كانوا ينتقصونه عند سيف الدولة، ويعارضونه في أشعاره، والإشارة كلها إلى سيف الدولة)[٣٣]

وإذا لم ينج فحول الشعراء من هنات في هذا الباب، فما هو الظن بمن دونهم من الشعراء إذا؟

---

(٣٢) العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق د. مفيد قميحة، (٢/٣٦٥)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(٣٣) المصدر السابق، (٢/٣٧٤).

المبحث الثاني
مراعاة مقتضى الحال في القرآن الكريم، وعلاقتها بالإعجاز في تراث أهل العلم

سنتناول في هذا المبحث مراعاة مقتضى الحال في القرآن الكريم بالتفصيل من خلال تراث أهل العلم.

أولا: مراعاة أحوال الإنسان وتكوينه الجسدي والروحي

الإنسان مزيج من جسد أرضي طيني وروح رباني علوي، فالطين كان في البداية، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ (صّ:٧١)، وقد امتزجت به الروح بعد ذلك، فكانت الحياة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ (صّ:٧٢).

ويمتاز الخطاب الرباني بمراعاة أحوال تكوين الإنسان من المادة والروح، وهو أمر قد انفرد به دون غيره من ألوان الخطاب البشري، يقول الأستاذ الزرقاني في حديثه عن خصائص الأسلوب القرآني: (الخاصة الثالثة: إرضاؤه العقل والعاطفة، ومعنى هذا أن أسلوب القرآن يخاطب العقل والقلب معاً، ويجمع الحق والجمال معاً، انظر إليه – مثلاً – وهو في معمعان الاستدلال العقلي على البعث والإعادة في مواجهة منكريهما، كيف يسوق استدلاله سوقاً يهز القلوب هزاً، ويمتع العاطفة إمتاعاً، بما جاء في طي الأدلة المسكتة المقنعة، إذ قال الله تعالى في سورة فصلت: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ (فصلت:٣٩)... وهل تسعد بمثل هذا في كلام البشر؟ لا، ثم لا، بل كلامهم إن وفى بحق العقل بخس العاطفة حقها، وإن وفى بحق العاطفة بخس العقل حقه، وبمقدار ما يقرب من أحدهما يبعد من الآخر، حتى لقد بات العرف العام يقسم الأساليب البشرية إلى نوعين لا ثالث لهما، أسلوب علمي وأسلوب

أدبي، فطلاب العلم لا يرضيهم أسلوب الأدب، وطلاب الأدب لا يرضيهم أسلوب العلم)[٣٤]

وامتاز القرآن الكريم بمراعاة أساليب التربية والتعليم في تربيته للبشر، يقول الأستاذ الزرقاني في حديثه عن عوامل تسهيل حفظ القرآن والسنة على الصحابة رضي الله عنهم: (العامل العاشر: حكمة الله ورسوله في التربية والتعليم، وحسن سياستهما في الدعوة والإرشاد، مما جعل الكتاب والسنة يتقرران في الأذهان، ويسهلان على الصحابة في الحفظ والاستظهار، أما القرآن الكريم فحسبك أن تعرف من حكمة الله به في التربية والتعليم أنه أنزله على الأمة الإسلامية باللغة الحبيبة إلى نفوسهم، وبالأسلوب الخلاب والنظم المعجز الآخذ بقلوبهم، وأنه تدرج بهم في نزوله، فلم ينزل جملة واحدة يرهقهم به ويعجزون عنه، بل أنزله منجماً في مدى عشرين أو بضع وعشرين سنة، ثم ربطه بالحوادث والأسباب الخاصة في كثير من سوره وآياته، ودعمه بالدليل والحجة، وخاطب به العقول والضمائر، وناط به مصلحتهم وخيرهم وسعادتهم، وصدر بذلك كله عن رحمة واسعة بهم، يكادون يلمسونها باليد، ويرونها بالعين) ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾(المائدة: من الآية٦) ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ (فصلت:٤٦).[٣٥]

كما امتاز الأسلوب القرآني بمراعاة أحوال النفس البشرية، فخاطبها بأسلوب الترغيب والترهيب، يقول الأستاذ الزرقاني في حديثه عن عوامل تسهيل حفظ القرآن والسنة على الصحابة رضي الله عنهم: (العامل الحادي عشر: الترغيب والترهيب اللذان يفيض بهما بحر الكتاب والسنة، ولا ريب أن غريزة حب الإنسان لنفسه تدفعه إلى أن يحقق لها كل خير، وأن يحميها من

(٣٤) مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني، (٢/٣١٣-٣١٥)، دار الفكر.
(٣٥) المرجع السابق، (١/٣٠٤).

كل شر، سواء ما كان فيهما من عاجل وما كان من آجل، ومن هنا تحرص النفوس الموفقة على وعي هداية القرآن، وهدى الرسول، وتعمل جاهدة على أن تحفظ منهما ما وسعها الإمكان، أما النفوس الضالة المخذولة، فإنها مصروفة عن هذه السعادة بصوارف الهوى والشهوة، أو محجوبة عن هذا المقام بحجاب التعصب والجمود على الفتنة، أو مرتطمة بظلام الجهل في أوحال الضلال والنكال).[٣٦]

وكشف القرآن الكريم أحوال النفس الإنسانية وخباياها، قال تعالى يذكر ما يمور في صدور المنافقين: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (التوبة:٦٤). وقال يذكر ما يعتلج في صدور المنافقين من حقد وغيظ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ (آل عمران:١١٩). وقال يصف تخبط المنافقين وقت الحرب: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ (آل عمران:١٥٤).)، وقال تعالى يبين علمه بما في نفوس أنبيائه: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ

(٣٦) المرجع السابق، (١/٣٠٨).

أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ (المائدة:١١٦)، وقال يبين ما يدور في خلد المؤمنين يوم بدر: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾(الأنفال: من الآية٧).

ولا عجب أن يعرض القرآن خبايا النفوس، قال تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ (الفرقان:٦).

وتوجيه الأحوال للسائلين من مقتضيات التربية القرآنية، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ (البقرة:١٨٩). قال الزمخشري: (فإن قلت ما وجه اتصاله بما قبله؟ قلت: كانه قيل لهم عند سؤالهم عن الأهلة وعن الحكمة في نقصانها وتمامها: معلوم أن كل ما يفعله الله عز وجل لا يكون إلا حكمة بالغة، ومصلحة لعباده، فدعوا السؤال عنه، وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر في شيء، وأنتم تحسبونها برا)[٣٧]

ولم تقتصر مراعاة القرآن على الجانب النفسي، بل راعى حتى الجانب الجسدي من الإنسان أيضا، ومن ذلك: حواسه، ونذكر بهذا الصدد أن مراعاة اللفظ القرآني لسمع الإنسان يعود إلى النظام الصوتي للقرآن، وعنه يقول الأستاذ الزرقاني: (ونريد بنظام القرآن الصوتي اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته، ومداته وغناته، واتصالاته وسكتاته، اتساقاً عجيباً وائتلافاً رائعاً، يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم أو مأثور... وهذا الجمال الصوتي أو النظام التوقيعي، هو أول شيء أحسته الآذان العربية أيام نزول القرآن، ولم تكن عهدت مثله فيما عرفت من منثور الكلام، سواء أكان مرسلاً أم مسجوعاً، حتى خيل إلى هؤلاء

(٣٧) الكشاف، تحقيق مصطفى حسين أحمد، (١/ ٢٣٤) دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

العرب أن القرآن شعر، لأنهم أدركوا في إيقاعه وترجيعه لذة، وأخذتهم من لذة هذا الإيقاع والترجيع هزة، ولم يعرفوا شيئاً قريباً منها إلا في الشعر، ولكن سرعان ما عادوا على أنفسهم بالتخطئة فيما ظنوا)[٣٨].

وعليه فالخطاب القرآني يراعي تكوين الإنسان وخصائصه الجسدية والنفسية والروحية، وهو ما لا يستطيع أي بليغ فعله، لأنه خارج عن طاقة الإنسان، وكان من نتائج تلك المراعاة أن النفوس تحبه، وتهرع إلى دوحته، لتستريح في ظلالها من عناء الحياة، ولتجد فيه أمنها وسكينتها، وتجدها لا تمل من ترداد آياته وسوره، لما له متعة في النفوس، ولذة في القلوب، وهذه إحدى مزايا القرآن التي تدل على إعجازه، يقول السيوطي: (الوجه الحادي والعشرون من وجوه إعجازه: أن سامعه لا يمجه، وقارئه لا يمله، فتلذ له الأسماع، وتشغف له القلوب، فلا تزيده تلاوته إلا حلاوة، ولا ترديده إلا محبة، ولا يزال غضاً طرياً، وغيره من الكلام ولو بلغ في الحسن والبلاغة مبلغه، يُمل مع الترديد، ويعادى إذا أعيد، لأن إعادة الحديث على القلب أثقل من الحديد، وكتابنا – بحمد الله – يستلذ به في الخلوات، ويؤنس به في الأزمات، وسواه من الكتب لا يوجد فيها ذلك، حتى أحدث لها أصحابها لحوناً وطرباً يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهم على قراءتها).[٣٩]

ثانيا: مراعاة القرآن لأحوال البيئة العربية التي نزل فيها

نزل القرآن بلسان عربي مبين، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾ (يوسف:٢)، واقتضت حكمة الله تعالى أن ينزل القرآن على سبعة أحرف؛ مراعاة لأحوال العرب الذين يعيشون في أماكن متباعدة من الجزيرة العربية، ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله

(٣٨) مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني، (٢/ ٣٠٩-٣١٠).
(٣٩) معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، صححه محمد شمس الدين، (١/ ١٨٤)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

صلى الله عليه وسلم أقرأنيها، فكدت أن أعجل عليه، ثم أمهلته حتى انصرف، ثم لببته بردائه، فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله! إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أرسله، اقرأ). فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هكذا أنزلت). ثم قال لي: (اقرأ). فقرأت. فقال: (هكذا أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه). متفق عليه، واللفظ لمسلم.[٤٠]

وقد قيل في تفسير هذه الأحرف سبعة أقوال، الأول: اختلاف الأسماء من إفراد وتثنية وجمع، والثاني اختلاف تصريف الأفعال، والثالث: اختلاف وجوه الإعراب، والرابع: الاختلاف بالنقص والزيادة، والخامس: الاختلاف بالتقديم والتأخير، والسادس: الاختلاف بالإبدال، والسابع اختلاف اللغات (اللهجات) وهو المرجح عند الجمهور[٤١]، قال الزرقاني: (إن التيسير على الأمة – وهي الحكمة البارزة في نزول القرآن على سبعة أحرف – لا يتحقق على الوجه الأكمل إلا بحسبان هذا الوجه الذي نوه به الرازي، وهو اختلاف اللهجات، بل هذا قد يكون أولى بالحسبان وأحرى بالرعاية في باب التخفيف والتيسير).[٤٢]

وكان من رعاية الله للعرب أن يسر لهم حفظ القرآن مراعاة لأحوالهم من الأمية، والحياة البدائية التي تفتقد المدارس ووسائل التعليم الموجودة لدى الأمم الأخرى المعاصرة لهم كفارس والروم، قال السيوطي في حديثه عن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم: (الوجه الثاني والعشرون من وجوه إعجازه تيسيره تعالى حفظه وتقريبه على متحفظيه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ (القمر: من الآية٢٢)، وسائر الأمم لا يحفظ كتبها الواحد منهم، فكيف الجم على مرور السنين عليهم، والقرآن ميسر حفظه للغلمان في أقرب مدة، حتى إن

(٤٠) مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (١/٦٧٧).
(٤١) مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني، (١/١٥٥).
(٤٢) المرجع السابق، (١/١٦٢).

منهم من حفظه في المنام، وحكي أنه رفع إلى المأمون صبي ابن خمس سنين وهو يحفظ القرآن).[٤٣]

والقرآن سجل دقيق لأبرز الأحداث في عصر الرسالة، وكانت مراعاة القرآن للحوادث في عصره من أسباب تيسير حفظه أيضا، ففي حديث الزرقاني عن العامل الثامن من عوامل تسهيل حفظ القرآن قال: (ارتباط كثير من كلام الله ورسوله بوقائع وحوادث وأسئلة، من شأنها أن تثير الاهتمام وتنبه الأذهان، وتلفت الأنظار إلى قضاء الله ورسوله فيها، وحديثهما عنها، وإجابتهما عنها، وبذلك يتمكن الوحي الإلهي والكلام النبوي في النفوس فضل تمكن، وينتقش في الأذهان على مر الأزمان، تجول مرة في رياض القرآن الكريم تجده يساير الحوادث والطواريء في تجددها ووقوعها، فتارة يجيب عن أسئلة السائلين بمثل قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ (الإسراء:٨٥)، وتارة يفصل في مشكلة قامت، ويقضي على فتنة طغت، بمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ﴾ (النور: من الآية١١) إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ (النور: من الآية٢٦)، وهن ستة عشرة آية، من سورة النور، نزلن في حادث من أروع الحوادث، هو اتهام أم المؤمنين عائشة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبنت أبي بكر رضي الله عنها وعن أبيها، وفي هذه الآيات دروس اجتماعية قرئت ولا تزال تقرأ على الناس إلى يوم الساعة، ولا تزال تسجل براءة هذه الحصان الطاهرة من فوق سبع سماوات).[٤٤]

ثالثا: مراعاة أحوال الإنسانية في شتى الأزمان والأمكنة.

القرآن خطاب إلهي لكل البشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم، قال تعالى

---

(٤٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، صححه محمد شمس الدين، (١/ ١٨٥).
(٤٤) مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني، (١/ ٣٠٠-٣٠١).

يدعو الناس إلى الإيمان بكتابه وبنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧٠﴾ (النساء:١٧٠)، وبين تعالى أن دعوة الرسول عليه السلام هي لكل معاصريه، قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٠﴾ (يّس:٧٠)، وأنها باقية إلى يوم الدين، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ (الحجر:٩).

وانطلاقا من عالمية رسالة القرآن، كان لا بد من إرضاء القرآن لكافة أنواع المخاطبين، وقد تحدث الزرقاني عن خصائص أسلوب القرآن، فقال: (الخاصة الثانية: إرضاؤه العامة والخاصة، ومعنى هذا أن القرآن الكريم إذا قرأته العامة، أو قريء عليهم، أحسوا جلاله، وذاقوا حلاوته، وفهموا منه على قدر استعدادهم ما يرضي عقولهم وعواطفهم، وكذلك الخاصة إذا قرؤوه أو قريء عليهم، أحسوا جلاله، وذاقوا حلاوته أكثر مما يفهم العامة، ورأوا أنهم بين يدي كلام ليس كمثله كلام، لا في إشراق ديباجته، ولا في امتلائه وثروته، ولا كذلك كلام البشر، فإنه إن أرضى الخاصة والأذكياء، لجنوحه إلى التجوز والإغراب والإشارة، لم يرض العامة لأنهم لا يفهمونه، وإن أرضى العامة لجنوحه إلى التصريح والحقائق العارية المكشوفة، لم يرض الخاصة لنزوله إلى مستوى ليس فيه متاع لأذواقهم ومشاربهم وعقولهم).[٤٥]

ولأن القرآن خطاب للناس جميعاً وفيهم الذكي والبليد كان لا بد له من مراعاة أحوال الأمم التي يخاطبها، وهذه المراعاة هي من أسباب التكرار في القرآن الكريم، يقول الجاحظ: (وجملة القول في الترداد، أنه ليس فيه حد ينتهى إليه، ولا يؤتى على وصفه، وإنما ذلك على قدر المستمعين، ومن يحضره من العوام والخواص. وقد رأينا الله عز وجل ردد ذكر قصة موسى وهود، وهارون وشعيب، وإبراهيم ولوط، وعاد وثمود، وكذلك ذكر الجنة والنار، وأمور كثيرة،

(٤٥) المرجع السابق (٢/٣١٣).

لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم، وأكثرهم غبي غافل، أو معاند مشغول الفكر ساهي القلب).[٤٦]

وعن ترداد القصص بشكل عام يقول الجاحظ: (وأما أحاديث القصص والرقة، فإني لم أر أحداً يعيب ذلك، وما سمعنا بأحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الألفاظ وترداد المعاني عياً).[٤٧]

ولأن هنالك فروقاً فردية بين الأفراد، وفروقاً جماعية بين الأمم، كان لا بد من مراعاة الفروق بين أصناف من المخاطبين، يقول الجاحظ: (وللإطالة موضع وليس ذلك بخطل، وللإقلال موضع وليس ذلك من عجز، ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً، وزاد في الكلام).[٤٨]

ولأن القرآن باق إلى قيام الساعة، فلا بد أن يكون أسلوبه مناسباً كل العصور، وقد أشار إلى ذلك الرافعي حين قال: (نرى أسلوب القرآن من اللين والمطاوعة على التقليب، والمرونة في التأويل، بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة المتقابلة التي تخرج بها طبائع العصور المختلفة، فهو يفسر في كل عصر بنقص من المعنى و زيادة فيه، واختلاف وتمحيص،وقد فهمه عرب الجاهلية الذين لم يكن لهم إلا الفطرة، وفهمه كذلك من جاء بعدهم من الفلاسفة وأهل العلوم، وفهمه زعماء الفرق المختلفة على ضروب من التأويل، وأثبتت العلوم الحديثة كثيراً من حقائقه التي كانت مغيبة، وفي علم الله ما يكون من بعد، وإن ما عهد من كلام الناس لا يحتمل كل ذلك ولا بعضه، بل هو كلما كان أدنى إلى البلاغة كان نصاً في معناه، ثابتاً في حيزه، تجمد الكلمة أو الجملة على معنى بعينه قد يستقيم وقد ينتقص، وكيفما قلبته رأيته وجهاً واحداً وصفة واحدة،

---

(٤٦) البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، (١/١٠٥).
(٤٧) نفسه.
(٤٨) الحيوان، (١/٩٣) طبعة الحلبي.

لأن الفصاحة لا تكون في الكلام إلا إبانة، وهذه لا تفصح إلا بالمعنى المتعين، وهذا المعنى محصور في غرضه الباعث عليه، وأكبر السبب في ذلك أن هذا القرآن الكريم ليس عن طبع إنساني محدود بأحوال نفسية لا يجاوزها، فهو يداور المعاني، ويريغ الأساليب، ويخاطب الروح بمنطقها من ألوان الكلام لا من حروفه، وهو يتألف الناس بهذه الخصوصية فيه، حتى ينتهي بهم مما يفهمون إلى ما يجب أن يفهموا، وحتى يقف بهم على نص اليقين ومقطع الحق، وتراه في أوضاعه من أجل ذلك يستجمع درجات الفهم، كأن فيه غاية لكل عقل صحيح، ولكنه في نفسه وأسرار تركيبه آخر ما يسمو إليه فهم الطبيعة نفسها، بحيث هو لو علا عن ذلك لخفي على الناس، ولو نزل عن ذلك لما ظهر في الناس، لأن علوه يفوت ذرعهم، ونزوله يوجد لهم السبيل إلى معارضته ونقضه، وكلا هذين يجعل أمره عليهم غمة، فلا يتجهون على صواب، وإنما هو في نفسه وفي أفهام النفس كما وصفه الله: الحق، والميزان، كل الناس يعملون لفهمه، ويدأبون عليه، ولكلٍّ درجات مما عملوا).[٤٩]

ومعاني القرآن تراعي أحوال البشر، وتنسجم مع معارفهم وأفهامهم على اختلاف مراتبهم العلمية، وقد ذهب الدكتور البوطي إلى أن معاني القرآن (مصوغة بحيث يصلح أن يخاطب بها الناس كلهم على اختلاف مداركهم وثقافتهم،وعلى تباعد أزمانهم وبلدانهم، ومع تطور علومهم واكتشافاتهم، فالآية تعطي كلا منهم من معناها بقدر ما يفهم، وما يفهم المتأخرون من معانيه زيادة كان مطويا عن السابقين، لعدم وجود ما ينبههم إليه إذ ذاك، وضرب المؤلف على ذلك مثلا الآية: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ (الفرقان:٦١). فالعامي يفهم أن كلا من الشمس والقمر يبعثان بالضياء إلى الأرض، وأنه غاير في التعبير تنويعاً للفظ، والمتأمل من علماء العربية يدرك أن الشمس تجمع إلى النور الحرارة، فلذلك سماها سراجاً،

(٤٩) تاريخ آداب العرب، (٢/٢٠٦-٢٠٨) دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

والقمر لا حرارة مع نوره، فسماه منيراً، والباحث المتخصص في الفلك يفهم من الآية إثبات أن القمر جرم مظلم، يضيء بما ينعكس عليه من ضياء الشمس التي شبهها بالسراج بالقياس إليه، والمعاني الثلاثة صحيحة، وكل منها على مستوى فهمه).(٥٠)

والقرآن كتاب عالمي يحتوي من كل اللغات مراعاة لكل الأمم، وقد استوجب هذا وقوع المعرب في القرآن، وهي قضية فيها خلاف بين أهل العلم، قال السيوطي: (فالأكثرون – ومنهم الإمام الشافعي وابن جرير وأبو عبيدة، والقاضي أبو بكر وابن فارس – على عدم وقوعه فيه لقوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ (يوسف: من الآية٢) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ (فصلت: من الآية٤٤)، وقد شدد الشافعي النكير على القائل بذلك).(٥١)

ولكن السيوطي لم يرضخ لرأي المنكرين لوقوع المعرب، بل عرض حججهم وناقشها، وذهب إلى جواز وقوعه، ورجحه على رأي المانعين، فقال: (وأقوى ما رأيته للوقوع – وهو اختياري –: ما أخرجه ابن جرير عن أبي ميسرة التابعي الجليل، قال: في القرآن من كل لسان، وروى مثله عن سعيد بن جبير ووهب بن منبه، فهذه إشارة إلى أن حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن أنه حوى علوم الأولين والآخرين، ونبأ بكل شيء، فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن؛ ليتم إحاطته بكل شيء، فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالاً للعرب، ثم رأيت ابن النقيب صرح بذلك، فقال: من خصائص القرآن على سائر كتب الله المنزلة أنها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت عليهم، لم ينزل فيها شيء بلغة غيرهم، والقرآن احتوى على جميع لغات العرب، وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير، انتهى. وأيضا

---

(٥٠) فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر، نعيم الحمصي، ص (٤٠٥)، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

(٥١) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، (١/١٧٨)، طبع مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الرابعة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

فالنبي صلى الله عليه وسلم مرسل إلى كل أمة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ (إبراهيم: من الآية٤)، فلا بد وأن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم وإن كان أصله بلغة قومه هو).[٥٢]

ويتميز الخطاب القرآني بشموله لكافة أنواع البشر، فمن أنواع الخطاب في القرآن الكريم ما نقله السيوطي، حين قال: "قال ابن الجوزي في كتابه النفيس: الخطاب في القرآن على خمسة عشر وجها، وقال غيره على أكثر من ثلاثين وجها.

- أحدها: خطاب العام، والمراد به العموم، كقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ (الروم: من الآية٥٤)
- والثاني: خطاب الخاص والمراد به الخصوص، كقوله: ﴿أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ (آل عمران: من الآية١٠٦). ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ﴾ (المائدة: من الآية٦٧).
- الثالث: خطاب العام والمراد به الخصوص، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ (النساء: من الآية١). لم يدخل فيه الأطفال والمجانين.
- الرابع: خطاب الخاص والمراد به العموم، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾ (الطلاق: من الآية١) افتتح الخطاب بالنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد سائر من يملك الطلاق...
- الخامس: خطاب الجنس، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ (البقرة: من الآية٢١).
- السادس: خطاب النوع: نحو: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ (البقرة: من الآية٤٠).
- السابع: خطاب العين: نحو ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ (البقرة: من الآية٣٥)...
- الثامن خطاب المدح، نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (البقرة: من الآية١٠٤)، ولهذا وقع خطابا لأهل المدينة، والذين آمنوا وهاجروا.
- التاسع: خطاب الذم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ (التحريم: من الآية٧)...

---

(٥٢) المصدر السابق، (١/١٧٨-١٧٩).

- العاشر: خطاب الكرامة، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ (الأنفال: من الآية٦٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ (المائدة: من الآية٤١)، قال بعضهم: وتجد الخطاب بالنبي في محل لا يليق به الرسول، وكذلك العكس، كقوله في الأمر بالتشريع العام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ (المائدة: من الآية٦٧)، وفي مقام الخاص: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ (التحريم: من الآية١)، وقد يعبر بالنبي في مقام التشريع العام، لكن مع قرينة إرادة التعميم، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ (الطلاق: من الآية١) ولم يقل طلقت".[٥٣]

وكثرة أنواع الخطاب دليل على عالمية الخطاب حتى إنه ليشمل أصناف الناس جميعا: فرادى وجماعات على اختلاف أديانهم ومذاهبهم من جهة، وهو دليل على مراعاة أحوال المخاطبين على اختلافها وتعددها من جهة أخرى، وهو أمر لا يتأتى فعله لأحد من الجن والإنس، مما يدل على أنه من لدن حكيم خبير.

رابعا: إعجاز القرآن الكريم وصلته بمقتضى الحال

من المقرر عند جمهور أهل العلم: أن القرآن معجز على الحقيقة وليس بالصرفة كما ذهب المعتزلة، وإذا عجزت قريش عن المجيء بمثل القرآن فغيرها من القبائل أعجز، وإذا عجزت القبائل العربية مجتمعة عن المجيء بمثل القرآن فعجز الأعاجم أولى، قال الباقلاني في هذا السياق: (إذا علمنا أن أهل ذلك العصر كانوا عاجزين عن الإتيان بمثله، فمن بعدهم أعجز، لأن فصاحة أولئك في وجوه ما كانوا يتفنون فيه من القول، مما لا يزيد عليه فصاحة من بعدهم، وأحسن أحوالهم أن يقاربوهم أو يساووهم، فأما أن يتقدموهم أو يسبقوهم فلا).[٥٤]

---

(٥٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، صححه محمد شمس الدين، (١/ ١٧٤-١٧٥).

(٥٤) إعجاز القرآن، للباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، ص (٢٥١)، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة.

والقرآن كتاب شامل جامع لمصالح العباد والبلاد في الدنيا والآخرة، وهو منفرد بخصيصة الإعجاز دون سائر الكتب السماوية الأخرى، قال الزمخشري في خطبة الكشاف: (أنشأه كتاباً عربياً ساطعاً تبيانه، قاطعاً برهانه، وحياً ناطقاً ببينات وحجج، قرآناً عربياً غير ذي عوج، مفتاحاً للمنافع الدينية والدنيوية، مصداقاً لما بين يديه من الكتب السماوية، معجزاً باقياً دون كل معجز على وجه كل زمان، دائراً من بين سائر الكتب على كل لسان في كل مكان، أفحم به من طولب بمعارضته من العرب العرباء، وأبكم به من تحدى من مصاقع الخطباء، فلم يتصد للإتيان بما يوازيه أو يدانيه أحد من فصحائهم، ولم ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناهض من بلغائهم، على أنهم كانوا أكثر من حصى البطحاء، وأوفر عدداً من رمال الدهناء).(٥٥)

وقد ذكر الباقلاني أن وجوه الإعجاز في مجملها كانت في عصره تدور حول ثلاثة وجوه:

- أحدها يتضمن الإخبار عن الغيوب.
- والثاني أمية النبي مع مجيئه بالكتاب تدل على حصول معجزة.
- والثالث: أنه بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يُعلم عجز الخلق عنه.

وقد فصل هو في الوجه الثالث فجعله على عشرة أقسام، وهي:

١ – ما يرجع إلى الجملة، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم.

٢ – ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتصرف البديع والمعاني اللطيفة.

٣ – عدم التفاوت في عجيب نظمه وتأليفه على ما يطرقه من موضوعات مختلفة.

٤ – عدم التفاوت في الفصل والوصل والعلو والنزول والتقريب والتبعيد.

---

(٥٥) الكشاف، تحقيق مصطفى حسين أحمد، (١/ع [مقدمة المؤلف]).

٥ – نظم القرآن وقع موقعاً يخرج عن عادة كلام الجن كما يخرج عن عادة كلام الإنس.

٦ – اشتماله على أساليب الخطاب العربي من البسط والاقتصار، والجمع والتفريق، والاستعارة والتصريح...

٧ – المعاني التي تضمنها في أصل وضع الشريعة والأحكام على تلك الألفاظ البديعة مما يتعذر على البشر.

٨ – أن الكلمة منها عندما تكون في تضاعيف الكلام تأخذها الأسماع، وتتشوف إليها النفوس، كالياقوتة في واسطة العقد

٩ – ومنها: أن عدد حروف كلام العرب تسعة وعشرون حرفاً، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة، ليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم.

١٠– سهولة القرآن، فهو خارج عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر.(٥٦)

وقد غاب عن الباقلاني كثير من وجوه الإعجاز التي استدركها العلماء من بعده، فمنها على سبيل المثال:

١ – ذكر ما حواه من (علوم ومعارف لم يجمعها كتاب من الكتب، ولا أحاط بعلمها أحد، في كلمات قليلة وأحرف معدودة) وهو الوجه الأول من وجوه الإعجاز عند السيوطي.(٥٧)

٢ – حفظه من الزيادة والنقصان، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر:٩)، وهو الوجه الثاني من وجوه الإعجاز عند السيوطي.(٥٨)

---

(٥٦) انظر: إعجاز القرآن، للباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، ص (٣٣-٤٧).
(٥٧) معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، صححه محمد شمس الدين، (١/١٢).
(٥٨) المصدر السابق، (١/٢٢).

٣ – مناسبة آيه وسوره وارتباط بعضها ببعض، حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، مرتبطة المباني، وهو الوجه الرابع من وجوه الإعجاز عند السيوطي.[٥٩]

٤ – اشتماله على جميع أنواع البراهين والأدلة، وهو الوجه الثلاثون من وجوه الإعجاز عند السيوطي.[٦٠]

٥ – وقد بلغت وجوه الإعجاز التي ذكرها الإمام السيوطي خمسة وثلاثين وجها، آخرها ألفاظه المشتركة، وعنها يقول: (وهذا الوجه من أعظم إعجازه، حيث كانت الكلمة الواحدة تتصرف إلى عشرين وجهاً، وأكثر وأقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر).[٦١]

٦ – المعجزات العلمية، وقد توسع بها المعاصرون.

والإعجاز الذي يراد به التحدي: هو الإعجاز في باب البلاغة والفصاحة التي هي بضاعة العرب، إذ تكون معجزة كل نبي من جنس ما اشتهر به قومه، وأما قضايا الإعجاز الأخرى مثل الإخبار عن الغيوب ونحوها فليس بوسع بشر أن يعمله، لأنه خارج نطاق طاقة البشر أصلاً، وقد فصَّل الباقلاني وغيره من أهل العلم في موضوع الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، والبلاغة كلها قائمة على مراعاة مقتضى الحال كما هو معلوم، وهذا ما دفع العلماء للبحث عن أحوال المخاطبين ومعرفة أسباب النزول، وكيفية ملاءمة الخطاب الرباني لأولئك المخاطبين، وأدى هذا – بدوره – إلى ازدهار البحث اللغوي والنحوي والصرفي والبلاغي والنقدي والتاريخي من أجل إثبات موافقة القرآن لأحوال المخاطبين في بيئته التي نزل فيها.

---

(٥٩) المصدر السابق، (١/٤٣).
(٦٠) المصدر السابق، (١/٣٤٦).
(٦١) المصدر السابق، (١/٣٨٧).

المبحث الثالث
نحو نظرة جديدة إلى مقتضى الحال في القرآن الكريم

نحن الآن في الربع الأول من القرن الخامس عشر للهجرة، والموافق لمطلع الألفية الثالثة للميلاد، وقد حصلت متغيرات كثيرة في الحضارة والمعلومات والمواصلات، هنالك ثورة علمية على وجه الأرض حظ العرب والمسلمين منها يقترب من الصفر، فكيف يخاطب أهل العلم عامة المسلمين بهذا القرآن لينهضوا من كبوتهم، وكيف يخاطبون من ورائهم العالم ليتفيأ دوحة القرآن؟ أليس القرآن خطاباً لكل العصور؟ كيف يكون خطاباً لنا في هذا العصر وقد ضاعت منا قوانين اللغة والأدب والعلم فلم نعد نميز بين الغث والسمين، وبين الشعر العمودي والشعر المنثور، وبين العامية والفصحى؟

كيف يكون خطاباً لنا وقد فسدت الأذواق الأدبية، واستبدلنا اللغات الأجنبية في مراكز علومنا وبحثنا باللغة العربية؟

وهل فهمنا نحن القرآن؟ ولو فهمناه فلماذا لم نمض به؟ ولم يفعل بنا ما فعله بالجيل الأول؟ أسئلة كثيرة لا بد من الإجابة عنها.

باديء ذي بدء نشير إلى أن هنالك ثلاث مدارس في العصر الحديث تتناول هذا الموضوع:

أولا: المدارس التي تتعامل مع القرآن

الأولى: مدرسة تقليدية تتبع المناهج القديمة ذاتها التي اتبعها السلف، وهذه المدرسة تستطيع أن تفسر مقتضى الحال بما يتلاءم مع أحوال الجيل الأول عند نزول القرآن، ولكن لا تستطيع إثباته بما يتلاءم مع واقع العالم المعاصر، وذلك لأنها تعيش بمعزل عن علوم العصر وهمومه وآلامه، فهي حبيسة عصر الآمدي والمعري والجرجاني والسكاكي، تعيش في الماضي ولا تغادره، وترى فيه القدوة والمثل الذي لا يمكن تكرره، وتتحدث للناس عن

الفصل والوصل، والقصر، ودقائق اللغة، متناسية أن هذه الأمور لا يدركها إلا المتخصصون، وأن تبسيطها للعامة لا ينسجم مع أحوالهم، فهم يجهلون أبسط قواعد النحو والصرف، فكيف نكلمهم بدقائق البلاغة والنقد، يقول الشافعي:(٦٢)

أأنثر دراً بين سارحة الغنم وأنثر منظوما لراعية النعم

ثم هذه العامة الميتة جوعاً وفقراً وحساً وذوقاً، هل هذا هو أسلوب خطابها؟ وهل هذا ما يقتضيه مراعاة مقتضى الحال في التعامل معها؟ إننا لا ننكر أهمية البلاغة وعلومها، ولكن كيف يعرف هذه العلوم من يجهل أبجديات الحروف، ونصف العالم العربي غارق بالأمية! أليس الأولى أن نخاطب هؤلاء بالقرآن وفق ما تقتضيه أحوالهم المعيشية وظروفهم الاجتماعية والاقتصادية واليومية، ونسوق من خلال ذلك بعض الإشارات البلاغية لكي ندفعهم لدراسة بلاغة القرآن الكريم وفهمه، أليست هذه هي رعاية مقتضى الحال المطلوبة في عصرنا، والتي عكستها المدرسة التقليدية فأهملت واقع الناس وحياتهم وذهبت لتعيش في ظلال المصطلح البلاغي! لقد حاولت أن ترفع أذواق الناس فلم تنجح في ذلك، فمعظم الناس اليوم مستواهم البلاغي والنقدي في القاع، إنهم يتقبلون كلاماً عامياً بلا وزن ولا قافية ويسمونه شعراً، إن ثقافتهم لا تعدو أن تكون في معظمها ثقافة صحف ومجلات ورياضة وفن، ومثل هؤلاء لا يستفيدون من الخطاب الراقي المعجز الذي جاء في القرآن الكريم إلا بتبسيطه لهم، وتقريبه من أذهانهم، وأما الارتفاع بهم إلى مستوى فهم البلاغة القرآنية كما شعر بها وتذوقها الأوائل فدون ذلك خرط القتاد، إن لم نقل المستحيل، وهذه ألف سنة قد مضت شاهدة على ما نقول، وكفى بها شهادة، فالشعر بعد المتنبي بدأ ينحدر، والبلاغة بعد عصر عبد القاهر بحثها لم يزدهر.

الثانية: مدرسة تقليدية متطورة، جمعت ما بين الأصالة والمعاصرة، تحدثت عن الإعجاز العلمي، ولكنها بقيت في قضايا البلاغة تدور في فلك القديم، وحاول

---

(٦٢) أسرار البلاغة، للجرجاني، تحقيق هـ. ريتر، ص (١٠٧)، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

بعضهم تقديم لمسات جديدة من خلال الحديث عن التصوير الفني في القرآن، ولكن بقيت قضية مقتضى الحال تراوح مكانها، بل صار هنالك نكسة في الفهم، ولا سيما فيما يتعلق بفهم آيات الردة والجهاد، فطبقها أقوام على المسلمين، مما قوض بنيان الدولة العصرية وهدد بالفتنة الداخلية، مدعين أن هذا هو مراد الله تعالى، متناسين التطور الهائل في مفهوم الدولة والسلطة والحكم، وهو تطور نتج عن القفزة الهائلة في العلوم الاجتماعية والسياسية التي سبقنا بها الغرب، مما أوقع الخطاب الديني في أزمة مع مجتمعاته ومع الآخرين ممن لا يدينون بالدين الحنيف، فهل تدمير الدولة وبناها التحتية – مثلا – ينسجم مع مراعاة مقتضى الحال التي تميز بها القرآن الكريم؟ وهل سحب المجتمع العاصر الذي يعيش في ناطحات السحاب ليعيش في الخيمة والصحراء هو مراعاة مقتضى الحال التي جاءتنا بها الأفكار المعاصرة، وهل هذا ممكن؟ ما نريد أن نقوله إن القرآن جاء شفاء لمشكلات البشر، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ (الإسراء:٨٢)، فهل جعلناه كذلك؟ أم جعلناه مصادماً للواقع والحياة!.

الثالثة: مدرسة تتبع المنهج البنيوي في التعامل مع النص، وترى دراسة النص بمعزل عن صاحبه والملابسات التي قيل فيها، وهذه مدرسة قد تصلح في الأدب، ولكنها لا تصلح لدراسة الدين، لأن دراسة النص الديني بمعزل عن القداسة وملابسات نزوله تؤدي إلى ظهور آراء جديدة لا تنضبط ومقاصد الدين، وتفتح الباب واسعاً للتحريف والتغيير في أحكام الدين وعقائده، مما يقود إلى إيجاد مفهوم جديد للدين لا يتواءم مع مفهومه الأول، والأصل في الدين هو الاتباع والانضباط، وليس التغيير والتبديل، قال تعالى يحث على اتباع الحنيفية: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ (البقرة:١٣٠). وقال أيضا: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ (البقرة:١٣٣)، وامتدح عز وجل الثبات على

الدين وعدم تغييره بالبدع والخرافات والاجتهادات الخاطئة، فقال: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ (الأحزاب:٢٣).

ثانيا: نحو اتجاه جديد في مسألة مقتضى الحال

في إطار هذه المدارس التي ذكرنا رؤيتها وقدمناها، ثم نقدناها، نعرض لرؤية جديدة في مراعاة مقتضى الحال، ونأمل أن تكون صواباً، وأن تلاقي قبولاً لدى أهل العلم والاختصاص، فنقول:

العالم اليوم أصبح قرية كونية واحدة، ولم يعد منفصلاً ومجزءاً كما كان في الماضي، بل صار متقارباً بفضل قنوات الاتصال، وقد تداخلت فيه الهموم والمشكلات والأفراح والأتراح، وما يجري في الشرق يؤثر على ما يجري في الغرب وكذا العكس، بمعنى أننا اليوم نعيش وكأننا أسرة آدمية واحدة من حيث الترابط والتشابك، والله قد خاطبنا على أننا أسرة ذات منشأ واحد وهو آدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءًۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ (النساء:١).

وهذه الأسرة كرمها الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ (الإسراء:٧٠).

وقد دعاها الله إلى عبادته، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ (الذاريات:٥٦)

وترك لها حرية الاختيار والقرار، قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ (البقرة: ٢٥٦).

وبين أن الكفر والإيمان موجودان معاً بأمره، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى

خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٢﴾﴾ (التغابن:٢).

ودعا جميع عباده إلى العدل ومكارم الأخلاق، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ (النحل:٩٠).

وأمر باستغلال ثروات الطبيعة لما فيه مصلحة الإنسان، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ (الجاثية:١٣).

ودعا جميع الأمم والشعوب إلى التعارف والتعاون، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات:١٣).

وبين أن للإنسان سعيه، والجزاء من جنس العمل: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ (النجم:٣٩).

ولم يفرض شيئاً على إرادة الإنسان، ولم يقهره باتباع الهداية، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ (الإنسان:٣).

وبين أن الحساب في النهاية يرجع إليه ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ (الزمر:٧).

وعليهم أن يعيشوا على هذا الكوكب بشراً متعاونين لا كذئاب مفترسة، قال تعالى موصياً عباده المؤمنين بالمعاملة الحسنة: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ (المائدة: من الآية٢)، وقال منداداً

بنكث عهود المشركين وسوء معاملتهم: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ (التوبة: ٧)

وقد دعا الله عباده إلى الحفاظ على البيئة، فقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ (لأعراف: من الآية٥٦).

وإلى حفظ الأمن الجنائي: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: من الآية٣٢).

ودعا المؤمنين إلى الصفح والسلام، قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ (الجاثية:١٤).

ودعا الكفرة إلى الإنفاق على المعذبين في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ (يّس:٤٧).

ودعا جميع عباده إلى الجنة ليدخلوها من بوابة الإسلام الذي هو السلام لهم، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ (يونس:٢٥).

وعلى ضوء ما قدمناه علينا أن نقرأ القرآن ونقدمه للعالم على أنه كتاب حي ناطق، ودليل هداية ورشاد لعصرنا لينقذ البشر ويحل مشكلاتهم الفردية والجماعية على مختلف الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والإنسانية.

هنالك شريحة من الناس لديها سوء فهم للإسلام، فينبغي إزالته بالتحليل والتوضيح، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا

أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾ (آل عمران:٦٤).

وهنالك شريحة ترفض الإسلام – حقداً واستكباراً – وهذه ينبغي تحليل نفسيتها، ووعظها، وزجرها بعد ذلك، والإعراض عنها في مرحلة لاحقة، قال تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ (الحجر:٩٤).

وهنالك شريحة تؤمن بالإسلام ولا تتبعه، وهذه ينبغي تربيتها وتهذيبها قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾﴾ (الصف:٢).

وهنالك شريحة تتمسك به ولكن لديها سوء فهم وتطرف، وهذه ينبغي محاورتها وردها إلى الحق، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ (النساء:٥٩).

وهنالك شريحة تفهم الإسلام وتتبعه، وعلى هذه يقع عبء نشره وتحسين صورته في أعين الناس. قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ (النحل:١٢٥).

ثالثا: المقصود بمراعاة مقتضى الحال في العصر الحديث

نزل القرآن منجماً على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فقام هو بتبليغه للناس، واليوم أمامنا القرآن مجموعاً بين دفتي المصحف، يمكن لأي فرد أن يقرأه ويلتمس فيه حلاً لأي مشكلة يريدها، وسيدرك بأن القرآن مراع لأحوال البشر جميعاً ومصالحهم إذا كان لديه معرفة بمنهج التعامل مع كتاب الله، أما الذين لا يعرفون العربية، أو يعرفونها ولكن معرفة مبسطة، أو لا يعرفون منهج التعامل مع القرآن، فهؤلاء يبقون خارج دائرة الفهم والإحاطة بمقاصد القرآن، ولذا فإن على أهل العلم والمعنيين بالدعوة مخاطبة هؤلاء على

قدر إمكاناتهم، مراعين مقتضى الحال، ومراعاة مقتضى الحال في العصر الحديث تختلف عنها في عصر السلف، فالقرآن ينبغي تقديمه للعالم اليوم على أنه خطاب حضاري من الطراز الأول، يدعو إلى العمران والإصلاح والتحاور، ويهتم بشكل خاص بإصلاح العلاقات الدولية بين الأمم والشعوب، وهو كتاب علم ومعرفة، يحتوي طائفة من أنواع الإعجاز العلمي، وهو كتاب تهذيب وتربية للنفس والمجتمع على حد سواء، وهو كتاب نهضوي لتطوير الفرد والمجتمع، وهو كتاب نوراني مشرق يتمدد في الفضاء الطلق، ويرفض الجمود والتخلف والخمول والكسل، وهو كتاب لحل مشكلات الحضارة والحياة، وليس تمتمات نرددها على حواف القبور، وهو كتاب سعادة لجميع البشر، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ (الإسراء:٩).

رابعا: نحو رؤية جديدة لتسهيل فهم القرآن وعلومه

إن أكثر الناس اليوم بمعزل عن علوم البلاغة العربية، ومعظم سكان العالم لا ينطقون بالعربية، وقد جاهد سلفنا في بيان مطابقة القرآن لمقتضى الحال في عصرهم، وقدموا لنا جهداً طيباً ينتفع به، وإن كان عليه ثمة ملاحظات، فمثلاً قول الجاحظ الذي سبق ذكره: (وللإطالة موضع وليس ذلك بخطل، وللإقلال موضع وليس ذلك من عجز، ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً وزاد في الكلام).[٦٣] هذا القول عليه ملاحظتان:

الأولى: أنه لم يبن على استقصاء وتحليل، فسورة الحجرات – مثلاً – آياتها طويلة وهي خطاب للمؤمنين، وكثير من آيات السور المكية موجهة إلى المشركين وهي طويلة، كما في قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ

(٦٣) الحيوان، (٩٣/١) طبعة الحلبي.

ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ (الأنعام:١٤٣).

الثانية: لو سلمنا للجاحظ بما يقوله، لكانت قراءة الآيات الموجهة لأهل الكتاب فيها سآمة على العرب؛ لما فيها من بسط، وفهم الآيات التي تخاطب العرب فيها صعوبة على أهل الكتاب لما فيها من حذف، ولاقتضى هذا أن ما هو بليغ في خطابه لقوم غير بليغ عند آخرين، وهذا يؤدي إلى تباين موقف الناس من بلاغة القرآن، وأنه راعى أحوال بعضهم دون بعضهم الآخر، وكيف يكون هذا الكلام دقيقاً والقرآن كتاب معجز وهو خطاب للناس جميعا؟.

إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب هذا أولاً، ثم إن اللفظ وإن توجه لأهل الكتاب في المقام الأول، فهذا لا يدل على أنه لا يعنينا فهمه وتلاوته والاستفادة منه، فنحن سنقرأه أيضاً، وينبغي أن يكون مطابقا لنا أيضاً، فهو خطاب غير مباشر لنا في هذه الحالة، والقرآن يخاطب أنواعا من البشر بما يليق بمقامه هو قبل كل شيء، ثم بما يليق بمقامهم، ومقام الإنسانية من بعدهم، لأنه ينظر إلى البشر كأسرة واحدة، وإلى البيئات الإنسانية المتعددة كبيئة إنسانية واحدة، وخطابه لبعضهم هو خطاب لمن يكون وراءهم، ولعامة الناس بشكل غير مباشر بعد ذلك، وهو في أحواله كلها في الدرجة العليا من البلاغة، أياً كان خطابه موجهاً للعرب أو غيرهم، ويبقى ما ذكره الجاحظ وغيره اجتهاداً يشكرون عليه، وهو زاد للمتخصصين، وله مكانته اللائقة في إطاره التاريخي، ولكن إنسان اليوم قد تغيرت ثقافته وبيئته وأفكاره، ولما كان النص ثابتاً لا يمكن تغييره والتلاعب به، كان لا بد من فهم أعمق للنص في إطار الواقع المعاصر وعلومه، والبحث عن وسائل جديدة لا تلغي القديمة، بل تتكامل معها لكي يكون القرآن – بحق – كتاب الدهر كله، فلننظر إلى الإنسان المعاصر: ماذا يريد، وماذا يشغله؟ ولننظر إلى المجتمع المعاصر ماذا يريد أيضاً، وماذا يشغله؟ ولنقدم من خلال القرآن وعلومه علاجاً لمشكلات هذا العصر، وبهذا يكون القرآن مطابقاً لمقتضى حالنا كما كان مطابقاً لمقتضى حال من سبقنا.

خامسا: نحو عرض جديد لموضوعات القرآن يناسب العصر

في القرآن حديث عن الإيمان وشعبه، وعن الأعمال الحسنة وأضدادها، وعن الأنبياء والمرسلين السابقين للنبي محمد عليه السلام، وعن العبادات والأحكام والشرائع، وعن بدء الخلق ونهايته، وعن الغيب والشهادة، وغير ذلك كثير، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: من الآية٣٨).

فمن حديثه عن الذات الإلهية:

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ (الأنعام:١٠٣)، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ (البقرة:٢٥٥)

ومن حديثه عن الأنبياء والرسل عليهم السلام:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ (البقرة:٢١٣). ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ (النساء:١٦٥). ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (الأنعام:٤٨). ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ (البقرة:١٣٦).

ومن حديثه عن مواقف الكافرين من أنبيائهم:

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ (الذاريات:٥٢-٥٣).

ومن حديثه عن العبادات:

﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣﴾ (قريش:٣). ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ۝٧٨﴾ (الاسراء:٧٨). ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦٠﴾ (التوبة:٦٠). ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝١٨٥﴾ (البقرة:١٨٥). ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ (آل عمران: من الآية٩٧).

ومن حديثه عن الدين:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ (آل عمران: من الآية١٩) ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ (الحج: من الآية٧٨). ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ (التغابن: من الآية١٦). ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝٥١﴾ (آل عمران:٥١).

ومن حديثه عن ثمرة الطاعة:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا ۝١٤﴾ (التغابن:١٣-١٤).

ومن حديثه عن حزب الحق:

﴿يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝٥٦ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن﴾ (المائدة:٥٦).

ومن حديثه عن حزب الضلال:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ ۝١٩﴾ (المجادلة:١٩).

ومن حديثه عن غاية الخلق:

﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ (الذاريات:٥٦).

ومن حديثه عن قيمة الهداية:

﴿ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝٢٢ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا﴾ (الملك:٢٢)

ومن حديثه عن النفس البشرية: ﴿ٱلۡأَبَدَۚ ۝٢ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ۝٢﴾ (القيامة:٢). ﴿ٱلۡمُبِينُ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٥١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ ۝٥٣﴾ (يوسف:٥٣). ﴿ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ ۝٢٧﴾ (الفجر:٢٧). قال السيوطي: (النفوس ثلاثة: لوامة، وأمارة، ومطمئنة).(٦٤)

موضوعات كثيرة تشمل شؤون الفرد والأسرة والمجتمع في شتى قضايا دينهم ودنياهم، على مختلف الأصعدة الفكرية والروحية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والصحية والتربوية وغيرها...

- لننظر إلى حديثه عن الأمم السابقة وتجارب الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم ضمن أمراض الأمم والشعوب.
- ولننظر إلى حديثه عن الزكاة والصدقة والبخل والفقر ضمن ما يسمى بالنظام الاقتصادي في الإسلام.

---

(٦٤) معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، صححه محمد شمس الدين، (٣/٤٤٢).

- ولننظر إلى حديثه عن المرأة والأسرة والميراث وحقوق الجار ونحو ذلك ضمن ما يسمى بالنظام الاجتماعي في الإسلام.
- ولننظر إلى حديثه عن العدل والشورى والظلم والاستبداد ونحو ذلك ضمن ما يسمى بالنظام السياسي في الإسلام.
- ولننظر إلى حديثه عن العبادات ومستتبعاتها ضمن ما يسمى بالنظام الروحي في الإسلام.
- ولننظر إلى حديثه عن الأمراض وصحة الأبدان ضمن ما يسمى بالنظام الصحي في الإسلام.
- ولننظر إلى حديثه عن العلاقات بين الأمم والشعوب ضمن ما يسمى بالنظام الدولي في الإسلام.

وهكذا.. يجب أن نقدم القرآن بروح العصر، وهذا ما يتطلبه مقتضى الحال في عصرنا، فنحيي به واقع الناس، ونجعله يمارس دوره من جديد على وجه الأرض.

سادسا: ضرورة استيعاب مشكلات الإنسان المعاصر وحلها من خلال القرآن

لأن القرآن خطاب للإنسان المعاصر، كما كان خطاباً لمن هم قبله، علينا أن نبحث في هموم الإنسان المعاصر ومشكلاته، ثم نقدم لها الحل من كتاب الله عز وجل، وبهذا يكون القرآن مطابقا لحال الناس اليوم، وأهم المشكلات التي يعاني منها الإنسان المعاصر تدور حول التالي:

أولا: المشكلات التربوية، وهذه علاجها بالجو الإيماني، والله هو المربي لخلائقه بواسطة نعمه، ومن ضمنها: هذا القرآن، فهو سبحانه (رب العالين). وأول ما يقرؤه المسلم من سورة الفاتحة: ﴿ٱلدِّينِ فِيهَآ أَبَدًا ۝٣﴾ (الفاتحة:٢).

وقد تطور علم التربية كثيراً في العصر الحديث، وبرزت مشاكل وأمراض نفسية معقدة لدى شريحة من الناس، ويمكن استخدام القرآن وسيلة للعلاج

النفسي، فندفع الوسواس بالإيمان بالقدر، قال تعالى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۝﴾ (النساء:٧٨).

وندفع الخوف بآيات الجهاد، قال تعالى: ﴿ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝﴾ (التغابن:١٤-١٨).

وندفع الخوف بآيات الجهاد، قال تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝ لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝﴾ (التوبة:٤١-٤٣).

وندفع الخوف بآيات الجهاد، قال تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝ لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝﴾ (التوبة:٣٨).

وندفع العشق بسورة يوسف، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ۝ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ۝﴾ (يوسف:٢٣-٢٩).

وندفع النرجسية بآيات التزكية، قال تعالى: ﴿ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝﴾ (التغابن:١١-١٢).

وندفع النرجسية بآيات التزكية، قال تعالى: ﴿ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا ﴾ (الكهف:٣٤).

وندفع التشاؤم والسوداوية بآيات الأمل، قال تعالى: ﴿ ٱلۡمَصِيرُ ۝ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ ۝﴾ (الطلاق: من الآية٧). وقال: ﴿ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ۝﴾ (الطلاق: من الآية١).

والعلاج الديني من أنجع الأدوية على الإطلاق، يقول الدكتور حامد زهران: (إن الدين وسيلة لتحقيق الإيمان والأمن والسلام النفسي، وهو هبة من الله لخير الإنسان يعينه على الحياة السوية، والدين إيمان وأخلاق وعمل صالح، وهو الطريق إلى العقل، والدين محبة، وهو الطريق إلى الخلاص والسعادة والسلامة والسلام، ورحم الله ابن القيم الذي قال: إن العلاج الديني هو أجود العلاج وأنفعه، وأفضله وأنجعه، وأكمله وأجمعه)[٦٥].

---

(٦٥) الصحة النفسية والعلاج النفسي، ص (٣٧٩-٣٨٠)، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.

ثانيا: المشكلات الاقتصادية، وهذه علاجها اليقين بأن الله هو الرازق، ﴿رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ٱللَّهُ لَآ ﴿٢٢﴾﴾ (الذاريات:٢٢)، وبالسعي لطلب هذا الرزق: ﴿شَيْءٍ عَلِيمٌ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ٱللَّهُ لَآ ﴿١٠﴾﴾ (الجمعة:١٠)، ورفض الأساليب المحرمة في الكسب كالربا مثلاً، قال تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ (البقرة:٢٧٥).

ثالثا: المشكلات السياسة، وهذه علاجها بإقامة النظام السياسي العادل الذي يحفظ حقوق الفرد والأمة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ (النساء:٥٨).

وأهم مشكلات العصر بالنسبة للشعوب:

الفقر والجهل أهم مشكلات شعوب العالم الثالث، وعلاج الفقر بالعمل وتوفير الفرص ومحاربة أسبابه وإقامة نظام الزكاة، قال تعالى: ﴿ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ (البقرة:٢٦٨).

والجهل علاجه بمحو الأمية وبناء المدارس ومراكز البحوث وتشجيع أهل العلم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: من الآية٩).

والبطر والترف أهم مشكلات شعوب العالم الأول، وهذا يكون علاجه بتشجيع الدراسات التي تبين أسبابه وطرق علاجه، لأنه في النهاية دمار للأفراد والدول، قال تعالى: ﴿عَلِيمٌ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ

﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ ﴿٥٨﴾﴾ (القصص:٥٨).

فلنبحث في القرآن عن أسباب الفقر وطرق علاجه، وعن أضرار البطر وطرق اجتنابها، ولنضم النظير على نظيره لنخرج من ذلك كله إلى خطاب عصري للقرآن، يخاطب الإنسان بما يفهم، ويحل له مشكلاته.

سابعا: النماذج الإنسانية الخالدة

هنالك نماذج إنسانية خالدة ذكرها القرآن، بعضها يمثل جانب الخير وبعضها يمثل جانب الشر، وفي هذا الإطار ينبغي أن نفهم القصص والأمثلة القرآنية، فمثلا:

فرعون، رمز للطاغية المتكبر المتجبر، قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم رُّسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ (يونس: من الآية٨٣).

وقارون، رمز للثري المترف الفاجر،، قال تعالى: ﴿فَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَبْتَغُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ۖ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۖ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۚ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ (القصص:٧٩).

وبلعام بن باعوراء، رمز للمثقف الفاسق الذي يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل،، قال تعالى:﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ۚ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ (الأعراف:١٧٥-١٧٦).

ويوسف، رمز للشاب المتعفف والملك الصالح، قال تعالى: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾

فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٠١﴾ (يوسف:١٠١).

وسليمان، رمز للملك الموحد العظيم، قال تعالى﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ ﴿٣٥﴾ (صّ:٣٥)، وقد استخدم هذا الملك سلطانه في دعوة الملوك الآخرين إلى دين الحق، قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ ﴿١١﴾﴾ (النمل:٤٤).

وفي هذا الإطار ينبغي النظر إلى الشخصيات الواردة في القصص القرآني، قال تعالى﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾﴾ (يوسف:١١١).

وفي القرآن كثير من الأسماء أبهمت، وكأن القصد منها أن يركز على الحالة والمثل وتشخيص تلك الحالة بمعزل عن اسم صاحبها، فالقرآن لا تعنيه الأسماء والتفصيلات بقدر ما تعنيه الحقائق التي تشكل محور الحدث الذي يتحدث عنه.

ثامنا: نحو عرض ميسر لبلاغة القرآن

عملية التواصل اللغوي كما سبق ذكره عن الجاحظ تقوم على عناصر ثلاثة: المتكلم والسامع والكلام.

فالمتكلم بالقرآن هو الله عز وجل، وهو متصف بأعظم الصفات وأحسنها، وهو صاحب الجمال المطلق، والجلال المطلق، يحب عباده، وهو رحيم بهم، يربيهم بنعمه ومنها كتابه، وهذا بعض ما وصف به ذاته العلية سبحانه، قال تعالى يذكر بعض أسمائه الحسنى﴿أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ

﴿٢٤﴾ (الحشر:٢٤). وقال ينزه نفسه عن الشبيه والند: ﴿ مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ﴿١١﴾﴾ (الشورى: من الآية١١). وقال يبين عظمته وقدرته: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ يَٰٓأَيُّهَا ﴿٦٧﴾﴾ (الزمر:٦٧). وقال يبين كراهيته للظلم: (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ) (الأنبياء:١١)، وقال يبين عذابه: (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) (البروج:١٢)، وقال يبين رحمته ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ (الحجر:٤٩). وقال ينشر رحمته على عباده العصاة ﴿أَوۡلَٰدِكُمۡ وَأَزۡوَٰجِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾﴾ (الزمر:٥٣).

عظمة حال المتكلم عز وجل تظهر في كلامه:

وعظمة الله تظهر في كلامه، وهذه إحدى مظاهر إعجاز كلام الرب عز وجل، يقول الأستاذ نعيم الحمصي في حديثه عنها: (وأضاف الدكتور البوطي عنايته بنواحي أخرى، منها: ناحية ظهور الكبرياء الإلهي في ألفاظ القرآن، وناحية جعله اللفظة القرآنية أساس جمال الأداء، وسعة الإيحاء، وبيان سلطان الربوبية، وتقديم القرآن منهجاً كاملاً للحياة، والروح الإنساني السامي فيه)[٦٦]، ويذكر قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ وَقُولُواْ لَّبَّيۡكُمۡ وَمَن جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴿٥﴾﴾ (القصص:٥). ويقول نقلاً عن البوطي: (وفي هذه الآية – فضلاً عن إيجاز القصر –: إشعارٌ بالربوبية وسلطانها ينبعث من ألفاظ الآية وصوغها، ومعنى عظيم في قوله: (وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) الذي يشعر بتحقيق الغلبة والنصر في المستقبل، ولا يستطيع البشر أن يفوه بهذا الكلام).[٦٧]

---

(٦٦) فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر، ص (٤٥٨)،

(٦٧) المرجع السابق، ص (٤١٤).

والإنسان هو المخاطب بهذا الكلام، فما هي خصائصه حتى استحق هذا الخطاب الإلهي؟ نعود إلى القرآن لنجد خصائص الإنسان:

نشأ البشر من نفس واحدة، وهذا يدل على وحدة الأصل البشري، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ (النساء:١).

وقد كرم الله الجنس البشري بسجود الملائكة لأبيهم آدم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (البقرة:٣٤).

وجعل الملائكة تستغفر للمؤمنين من عباده، قال تعالى﴿وَأَوْلَٰدِكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن جَنَّتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧﴾﴾ (غافر:٧).

وقد قسم الله الناس إلى شعوب وقبائل لتتعارف لا لتتفاخر بأنسابها، وجعل أفضل الناس أتقاهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات:١٣).

ورحلة الإنسان تبدأ من ضعف وتنتهي به، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ جَنَّتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ ﴿٥٤﴾﴾ (الروم:٥٤). وقال تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ﴾ (الأنفال: من الآية٦٦). ويظهر ضعف البشر عند الشدائد فيتضرعون إلى الله يطلبون منه العون، قال تعالى﴿عَظِيمٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن جَنَّتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ كَفَرُواْ

وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ ۘ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٢٥﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِى ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ ۖ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَـٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٢٥﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِي الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى

وتحدى بأقصر سورة منه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۖ بِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٣٩ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ ۝١١﴾ (البقرة:٢٣).

وبين عجز البشر أمام تحديه: ﴿ٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٩٨ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ۝٢٤﴾ (البقرة:٢٤).

بل يعجز الخلق جميعاً عن الإتيان بمثله ولو اجتمعوا لذلك، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ (الإسراء:٨٨).

والقرآن خلو من التناقض والاختلاف ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٦٥ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝١٦٦﴾ (النساء:١٦٥-١٦٦).

وقد جاء القرآن بلسان عربي: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾ (النحل:١٠٣).

وجاء به رجل أمي: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨﴾ (العنكبوت:٤٨).

بواسطة الوحي من خلال سفير الملائكة جبريل عليه السلام: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٩٦﴾ (الشعراء:١٩٣).

وهو أحسن الكلام المنزل من السماء: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٢٣ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٢٤ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٢٥ فَأَذَٰقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٢٦ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٧ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٢٨﴾ (الزمر:٢٣-٢٨).

والقرآن خالد محفوظ إلى يوم الدين: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر:٩).

يهدي الناس إلى الأحسن دائما: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ (الإسراء:٩).

والإعراض عنه سبب الهلاك والشقاء في الدنيا والآخرة: ﴿وَمَن جَنَّتِجْزِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢٤﴾﴾ (طه:١٢٤).

تاسعا: نظم القرآن

يتكون البناء اللغوي للقرآن من (١١٤) سورة، وكل سورة تتكون من مجموعة من الآيات، والآية تتكون في الغالب من جملة أو أكثر، والجملة تتكون من تركيب الكلمات بعضها مع بعض، وعليه فنحن أمام أربعة مستويات في تحليل نظم القرآن:

- الأول: اللفظ المفرد.
- الثاني: الآية التي ربما تتكون من جملة أو أكثر.
- الثالث: تأليف النص أو نظمه، وهو هنا يتمثل بالسورة.
- الرابع: تلاؤم ترتيب النصوص مع بعضها، بمعنى وحدة التأليف أو وحدة ترتيب نصوص النظم القرآني.

ونبدأ بالحديث عن اللفظ المفرد.

فأما اللفظة القرآنية:

فلقد مخض القرآن زبدة ألفاظ العربية، واختار أيسرها وأجملها وأفخمها، حتى صار التحاكم إليه واجباً في هذا الباب، وإلى هذا ذهب الجاحظ، يقول الأستاذ حمادي صمود في حديثه عن الجاحظ: (أما المعجم فنموذجه الأسمى القرآن، وعلى قدر مجاراة الكلام لألفاظه يكون حظه من الفصاحة والبلاغة).[٦٨]

(٦٨) التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ص (٢٧٠).

وإذا استعان القرآن بكلمة غريبة فلغرض يتعلق به الكلام، لا تؤديه إلا تلك الكلمة، فيكون اختيارها هو الفصاحة بعينه، كما في كلمة ضيزى الواردة في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِنۡ سُلۡطَٰنٍۚ﴾ (النجم:٢٣)، فهي كلمة تقابل غرابة القسمة الجائرة لكفار قريش، في جعلهم الملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك، يقول الرافعي في هذا السياق: (وفي القرآن كلمة هي من أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه، وهي كلمة: ضيزى، من قوله تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِنۡ سُلۡطَٰنٍۚ﴾ (النجم:٢٣)، ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه، ولو أردت اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها، فإن السورة التي هي منها وهي سورة النجم، مفصلة كلها على الياء، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل، ثم هي في معرض الإنكار على العرب، إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله، مع أولادهم البنات[٦٩]، فقال تعالى﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِكِتَٰبِهِمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ﴾ ﴿أَمۡ لَهُمُ ٱلۡبَنُونَ وَلَهُ ٱلۡبَنَٰتُ﴾ ﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا﴾ ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ﴾ ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ﴾ ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ﴾ ﴿فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ﴾ ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾ ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ ﴿فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ ﴿إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾ ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ﴾ ﴿لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ ﴿إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ﴾ ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ ﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾ ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ ﴿وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ ﴿وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾ ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (النجم:٢١ – ٢٢) فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها، وكانت الجملة كلها كأنها تصور – في هيئة النطق بها – الإنكار في الأولى، والتهكم في الأخرى، وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل، ووصفت حالة المتهكم في إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدين فيها إلى الأسفل والأعلى، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية).[٧٠]

وعليه ينبغي في التعامل مع بلاغة القرآن أن يدرك القارىء والمتأمل لكتاب الله أنه ليس بالإمكان تغيير مفردة من مفردات القرآن الكريم ووضع أي مفردة أخرى من كلمات اللغة بديلاً لها.

---

(٦٩) أي دفنهن على الحياة كما كان من عادتهم.

(٧٠) تاريخ آداب العرب، (٢/ ٢٣٠).

وأما الآية القرآنية:

فهي مرتبة بطريقة محكمة، ولا يمكن التغيير والتبديل بين كلماتها، إذ لو فعل ذلك لذهبت البلاغة، وفسد النظم، ونضرب لذلك مثلاً، وهو: قوله تعالى: ﴿ ٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ ۚ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ (التغابن:١٦-١٨).

ونلحظ في هذه الآية تناسقاً بديعاً وجمالاً آسراً، وهي مركبة من عدة جمل مترابطة متماسكة في نسيج واحد، سنتناولها معاً:

١ – ابتدأ بالأمر بعبادة الله؛ لأنها أساس الفلاح والنجاح.

٢ – جاء الأمر للجماعة؛ لأن المفرد يدخل في الجماعة دخولاً أولياً.

٣ – احترز بقوله (ولا تشركوا به) مما يقع به العباد من الشرك، فليس المقصود بالأمر محض العبادة، وإنما المقصود العبادة الخالصة.

٤ – احترز بذكر المفعول (شيئاً)؛ ليشمل صغير الشرك وكبيره، إذ كثيراً ما يقع بعض الناس بالشرك عن غفلة ودون تمحيص.

٥ – ذكر الوالدين بعد الله؛ لأن الله أوجد الإنسان بواسطتهما.

٦ – ذكر الإحسان لهما؛ لأنه هو الغاية في المعاملة الجيدة.

٧ – بعد ذلك أوصى بالإحسان إلى شريحة أخرى من المجتمع: (وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ) فابتدأ بالأقرباء لأنهم أرحام، وهم الدائرة الأخص بالإنسان، ثم انتقل إلى دائرة المحرومين، فذكر اليتامى؛ لأنه لا أب لهم، فهم أحوج إلى الشفقة من غيرهم، وعقب بالمساكين؛ لأنه لا مال لديهم، فهم أشبه بالأيتام، فمن له أب لا يعمل ولا يطعمه يشبه اليتيم الذي لا أب له ولا يطعمه أحد.

٨ – بعد ذلك انتقل إلى الجيران، فقال: (وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ) أي الجار القريب والجار البعيد، فابتدأ بالأقرب ثم ذكر الأبعد، وذلك بقصد تحسين علاقات الإنسان بمحيطه البيئي ابتداء بمن هو أقرب إليه.

٩ – بعد ذلك ذكر: (وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ) قال الزمخشري: (هو الذي صحبك بأن حصل بجنبك، إما رفيقاً في سفر، وإما جاراً ملاصقاً، وإما شريكاً في تعلم علم أو حرفة، وإما قاعداً إلى جنبك في مجلس أو مسجد أو غير ذلك، من أدنى صحبة التأمت بينك وبينه، فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه).[٧١]

١٠– بعد ذلك تناول: (وَابْنِ السَّبِيلِ) وهو المسافر المنقطع، مما يمر بالإنسان عابراًأو صدفة.

١١– وهؤلاء كلهم طبقة الأحرار، ينتقل بعدهم إلى ذكر طبقة العبيد المستضعفة، والتي عادة لا يعبأ بها أحد، فيوصي بهم: (وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ).

١٢– وتختم الآية منددة بمن لا يعبأ بهؤلاء المذكورين ولا ينفذ وصية الرب بهم: (إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً)، وغالباً ما يكون هذا المختال رجلاً مغروراً بنفسه وسلطانه، لا يرى في مرآة الوجود غير ذاته، فيتعامل مع الناس بروح التكبر والاحتقار، قال الزمخشري: (المختال: التياه الجهول الذي يتكبر عن إكرام أقاربه وأصحابه ومماليكه، فلا يتحفى بهم، ولا يلتفت إليهم)[٧٢].

ولو أردنا ترتيب هذه الآية على غير ما ذكر الله لبطل الإعجاز وذهب الجمال، فقد ابتدأ بالأهم فالأهم، وابتدأ بجملة إنشائية وختم بخبرية، ووصف من لا يلتزم بهذه الوصية بأنه مختال فخور، فشخص مرضه النفسي والاجتماعي، وختم الآية بقوله (لا يحب) ولم يقل – مثلا –: (يحب المتقين)، لأن العادة في الوصايا الجامعة أن يستنكف بعض الناس عن قبولها أو تنفيذها، فشمل بالآية من أطاع ومن عصى، ودل مفهوم الآية على أن من التزم بالوصية

---

(٧١) الكشاف، تحقيق مصطفى حسين أحمد، (١/٥٠٧).
(٧٢) نفسه.

كان محبوباً لله تعالى، وذكر كلمة مختالاً قبل (فخوراً)، مراعاة للفاصلة والجرس الموسيقي من جهة، ولأن الخيلاء سبب للفخر أمام الناس من جهة أخرى، فسبحان العليم الحكيم الذي لا تحيط بمكنون كلماته الأفكار، ولا يسطر حسن كلماته مداد الأقلام ولو مدتها سبعة بحار!.

وأما من حيث نظم السورة القرآنية:

السورة هنا تمثل النص الكامل، ولا يمكن التغيير والتبديل بين جمله، فهي مرصوفة بشكل لو تم أي تغيير وتبديل به، لظهر الخلل في وحدة النص وانسجام أجزائه وجمله.

لقد نظمت الآيات القرآنية في السورة بطريقة تشبه الطريقة التي نظمت بها كلمات الآية الواحدة، فكما أن الإعجاز يبطل، والحسن يذهب إذا حصل تغيير أو تبديل لموقع كلمات الآية الواحدة، فإن الأمر كذلك بالنسبة إلى السورة الواحدة، فلا يمكن تقديم آية أو تأخيرها، أو حذفها أو الإضافة إليها، لأن ذلك كله يخل بنظم تلك السورة، ويفقدها جمالها.

ولنأخذ مثلا من قصار السور [حتى لا يطول البحث] سورة النصر، قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ (النصر:١)، هذه بشارة للمستقبل من الزمن، أعقبها ببشارة أخرى وهي الأهم والأعظم، لأنها هي المقصود من الفتح العسكري، وهي أن يفتح الله قلوب قريش وأفئدتهم لهذا الدين، فقال: ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾ (النصر:٢). وطالما ان الله فتح لنبيه البلاد وقلوب أصحابها أيضا، فليس له أن يقابل ذلك إلا بالشكر والثناء ممثلا بالتسبيح والاستغفار، قال تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ (النصر:٣)، فالتحم أول السورة مع آخرها، ابتدأت بخبر، وانتهت بإنشاء، بشارة يقابلها تعبد واستغفار، وليس عقب النصر أمنية لنبي أو فاتح، فقد تحقق ما كان يصبوا إليه، ومن ثم كانت هذه السورة نعياً للنبي عليه الصلاة والسلام وهو حي، بأنه سيذهب بعد إنجازه العظيم لملاقات الرفيق الأعلى خالياً من الذنوب والعيوب.

وأما من حيث وحدة نصوص النظم في الكتاب العزيز:

ونعني به: ترتيب السور القرآنية، فقد جاءت مرتبة بطريقة لا يصلح معها تقديم سورة ولا تأخيرها، فقد حبك نظمه من أوله إلى آخره بطريقة معجزة، ابتدأ بسورة الفاتحة التي تعتبر مقدمة للقرآن وموجزاً لموضوعاته، ثم جاءت طوال السور التي فيها أحكام العقيدة والشريعة، ثم جاءت السور التي تتضمن القصص القرآني الذي فيه العبر، ثم اختتم بقصار السور التي تكاد تلخص ما ورد في طوالها من أحكام وأخبار.

وقد تأملت ملياً في سبب انتهاء القرآن بسورة الناس، والاستعاذة بثلاثة أسماء لله، وهي الرب والملك والإله، فهو رب الناس وملكهم وإلههم، لغرض واحد وهو الاستعاذة من شر الوسواس الخناس، بينما في سورة الفلق استعاذ برب الفلق مرة واحدة لجملة من الشرور، وهي أربعة: الأول: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ۝٢﴾ (الفلق:٢)، والثاني: ﴿ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ ۝٣﴾ (الفلق:٣). والثالث: ﴿رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ٱللَّهُ لَآ ۝٤﴾ (الفلق:٤). والرابع: ﴿إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ ۝٥﴾ (الفلق:٥). علما أن شر ما خلق يدخل فيه الوسواس، فلماذا خصه هنا بالاستعاذة؟ بمعنى أن الاستعاذة مرة واحدة لأربع أشياء تدخل فيها جملة الشرور في هذا العالم، فلماذا يستعيذ في سورة الناس بثلاثة أسماء لله لشر واحد؟ لو أراد أن يكون على نفس السياق السابق في سورة الفلق لكان ينبغي أن يستعيذ لاثني عشر شراً! فوجدت بعد التأمل أن انهدام الحضارات وذهابها سببه انهدام الدين، وسبب انهدام الدين يكون بانهدام الإنسان من داخله، وانهدام الإنسان من داخله لا يكون إلا بسبب من وسوسة شيطانية من جني أو إنسي، فهذه الوسوسة الناعمة إذا أصغى الإنسان إليها أفسدت دينه ودنياه، وأحرقت حاضره ومستقبله، وذهبت بالفرد والجماعة، وأفنت الأمم والحضارات، فحري بكتاب الله الذي حرص على بناء الفرد المؤمن الإيجابي، وتكوين الأمة المسلمة الراشدة من أول آية في كتابه إلى آخر آية، أن يحصن الفرد والجماعة من شر هذه الوسوسة التي تهدم للمرء كل ما بناه القرآن قبل هذه السورة، فحقيق بهكذا سورة أن يختم بها القرآن، وأن

تكون آخر ما يقرؤه المسلم في ختمه للقرآن، لكي يبقى على العهد، لا يلتفت لوساوس شياطين الجن والإنس، فيهدم مابناه، ويخسر آخرته ودنياه.

وعليه ينبغي أن يكون السرد البلاغي قائماً على بيان وحدة النظم القرآني وتآلفه، مع الاستئناس بعلوم البلاغة عند تفسير كتاب الله العزيز.

عاشراً: قاعدة في إحصاء المفردات القرآنية وعلاقتها بمقتضى الحال

في العصر الحديث حيث تم استخدام الحاسب الآلي وتقنيات التعليم، نستطيع أن نستفيد من تحليل بعض المفردات القرآنية، ومعرفة السياقات التي وردت فيها، وبناء عليه فإن المفردات التي يكثر دورانها في القرآن تكون لها الأولوية في خطابنا للناس.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، فقد تكررت كلمة: الله (٢٦٩٢) مرة. وكلمة: رب مع مشتقاتها (٨٢٩) مرة، إله مع مشتقاتها (١٤٧)، شمس (٣٣) مرة، قمر (٢٧)، ليل (٩٢) مرة، نهار (٥٧) مرة، عمل مع مشتقاتها (٣٦٤) مرة، عبد مع مشتقاتها (٢٧٨)، طعم مع مشتقاتها (٥٠) مرة، علم مع مشتقاتها (٨٦٣) مرة[٧٣].

نقف عند كلمة العلم، فقد وردت أول مرة في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ﴿١٢٠﴾﴾ (البقرة:١٢٠)، والآية هنا تحذر صاحب العلم من أن يتبع صاحب الهوى، ووردت آخر مرة في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عِندَهُۥ أَجْرٌ عَظِيمٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ ﴿١٦﴾﴾ (الملك:٢٦) والآية هنا ترد العلم الكلي إلى الله عز وجل، ولو تتبعنا مواضع مرور كلمة العلم، ثم تتبعنا مشتقاتها في الكتاب العزيز،وعرفنا

(٧٣) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، مادة (الله، رب، إله، شمس، قمر، ليل، نهار، عمل، عبد، طعم، علم). نشر المكتبة الإسلامية، إستانبول.

العلاقات بين الآيات التي تتحدث عن العلم، لوصلنا إلى منهج معين يوضح لنا حركة العلم ودوره في الحياة من خلال وجود كلمة العلم ومشتقاتها في القرآن الكريم، فالحياة فعل الله وأمره، والقرآن منهج الله ووحيه، ولا بد أن يتطابق الاثنان لأنهما من إله واحد حكيم خبير.

وعليه فينبغي أن يكون تركيزنا أكثر على ما دارت عليه ألفاظ القرآن مع دراسة السياق الذي وردت فيه تلك الكلمات، والأخذ بعين الاعتبار بظاهرة الترادف، فقد يشترك المترادفان في التعبير عن غرض واحد، وبهذا ننتج خطاباً عصرياً يتواءم مع ما وصل إليه العلم من تقدم وازدهار، ويوافق مقتضى حال البشر، وينسجم مع مطالب القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾(يوسف: من الآية٧٦).

أحد عشر: ملابسات الظروف الزمانية والمكانية وقت التنزيل:

أحاط بالقرآن الكريم عند نزوله ظروف اجتماعية وقبلية وزمانية ومكانية، وقد تغلب عليها جميعاً، وصنع الحياة من خلالها، فآياته هي بحر الحياة، ومنها آيات الجهاد، فلم تشرع إلا من أجل حياة طيبة، إذ لم يفرض الجهاد للعدوان، ولكن لدفع الظلم عن المؤمنين، قال تعالى: ﴿أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ﴿٣٩﴾﴾ (الحج:٣٩). وقد نهى الله عن العدوان، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ (البقرة:١٩٠). وندد الله تعالى بعدوان الكافرين وتهجيرهم للمسلمين من ديارهم بالقوة، قال تعالى: ﴿لِلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ ﴿٤٠﴾﴾ (الحج:٤٠)، ومن قبل استنكر أحد المؤمنين المؤامرة الفرعونية لتصفية النبي موسى، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ

أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٧٥ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٧٦ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٧٧ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧٨﴾ (غافر:٢٨). ولم يقبل الكفرة مبدأ التعايش في وطن واحد مع المؤمنين على قاعدة: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ (الكافرون:٦)، وكان الكفر – دائماً – يرفض التعايش مع المؤمنين في وطن واحد، قال تعالى﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ أَصَابَ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ ١١﴾ (ابراهيم:١٣). وربما قام الكفر بقتل أبناء المؤمنين إيلاماً لآبائهم، قال تعالى: ﴿إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ ٢٥﴾ (غافر:٢٥). وكم قتل من أنبياء ومرسلين فاصطفاهم الله شهداء قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ٧٠﴾ (المائدة:٧٠). وكم قتل من المؤمنين مع الأنبياء! قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ (آل عمران:٢١). فإزاء مجتمعات كهذه لا تؤمن بالتعددية ولا الحوار ولا الرأي الآخر كان لا بد من الجهاد، دفاعاً عن النفس أولاً، والحرب تتطور إذا بدأت، فقد تطورت الأحداث؛ ليصبح الجهاد دفاعاً عن كل مظلوم في الأرض، وإنقاذاً للقيم العليا من أن يدنسها المجرمون الفاسدون، وهو ما يسمى بجهاد التحرير أو الطلب.

وعليه فالجهاد ضرورة لدفع العدوان، ولنشر الدين، وتوصيله إلى العالم، وينبغي أن يراعى في فهم آيات الجهاد ما يلي:

١ – جانب الدين نفسه الذي يُجاهد من أجله، ونشره وإظهاره على الدين كله، حيث ارتضاه الله لعباده جميعاً، ولم يرتض لهم غيره.

٢ – جانب المجاهدين، ومدى قدرتهم على هذا الواجب قوة أو ضعفاً، في ضوء الموازنة الواجبة بين الإمكانات والواجبات.

٣ – جانب الآخرين المجَاهَدين، وطبيعة موقفهم من هذا الدين مسالمة أو مقاومة، والوقوف أمام تحقيق خصائصه وعالميته.

وللجهاد مواضعه، وللسلم مواضعه، وينبغي عدم الخلط بوضع كل منهما موضع الآخر، مما يفسد القيم الجميلة في الحياة، قال المتنبي:(٧٤)

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى

وفي عالمنا المعاصر حيث تغيرت أمور كثيرة، وتطورت الحريات، صار بوسع المؤمنين – أفراداً وجماعات – في كثير من المجتمعات المتحضرة أن يمارسوا الأركان الأساسية من دينهم دون خوف، فبناء عليه ينبغي أن يكون المؤمن هو المثال المنضبط للأمن والسلام، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم)(٧٥)، وقال أيضاً: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)(٧٦).

أما في حالات الإبادة التي تتعرض لها بعض الأقليات المسلمة، فالدفاع عن النفس مشروع، ونصرة المظلوم واجبة على كل ذي ضمير حي، والجهاد ضرورة للفرد والمجتمع – على حد سواء – في حالة دفع الغزو والاحتلال من أجل استرداد الحرية والكرامة، والحقوق المغتصبة والأرض السليبة، والمقدسات التي لا تقدر بثمن، أما جهاد التحرير فيكاد يكون قد توقف في معظم حالاته لأسباب عدة منذ القرن الأول للهجرة، وقد استمر في بعض الحالات الأخرى

---

(٧٤) ديوان المتنبي بشرح العكبري، صححه مصطفى السقا، وإبراهيم البياري، وعبد الحفيظ شلبي،(١/٢٨٨).

(٧٥) رواه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة، انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (١/١٧).

(٧٦) متفق عليه عن عبد الله بن عمرو، انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (١/١٠).

حتى العهد العثماني، حيث فتحت القسطنطينية وألبانيا وبعض البلدان الأخرى، وهو بعيد المنال الآن، لأن أسبابه ووسائله غير متوفرة، فلقد عجز المسلمون عن أن يدفعوا الاحتلال عن بعض بلدانهم، فضلاً عن أن يحرروا بلاد غيرهم، وإن كان جهاد التحرير شرف لمن يفعله، لأنه خدمة للآخرين بنقل التجربة الإسلامية إليهم مجاناً، بل لقد كان المسلمون يتحملون ضريبة ذلك من دمائهم وأموالهم مقابل رضوان الله عليهم، قال تعالى: ﴿قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ ﴿١١١﴾﴾ (التوبة:١١١)، وهذا الجهاد ليس عدواناً بل هو خير ورحمة للأمم والشعوب، ولولاه لما وصل الإسلام إلى أقاصي الدنيا، ولكنه يكاد يكون قد توقف زخمه مع نهاية القرن الأول الهجري.

وعليه فالواقع اليوم يتطلب من المسلمين أن يقرؤوا العالم جيداً، ويتعايشوا معه، ويكسبوا احترام الناس، ويسعوا لنشر دينهم بأيسر السبل وأقربها للقلوب، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ (النحل:١٢٥). أما رفع السلاح لمقاتلة جميع الأمم والشعوب بحجة عدوانها على المسلمين فهو غير مقبول، ولا طاقة للمسلمين به، فقد أصبحوا أمة مستضعفة، لا يقيم لها عدوها وزناً، وعلى المسلمين أن يتحملوا بشجاعة مسؤولية ضعفهم، ولا يلقوا مشكلاتهم على الآخرين، قال تعالى: ﴿عَلِيمٌ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ (آل عمران:١٦٥). وقال تعالى: ﴿وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ ﴿٥٣﴾﴾ (الأنفال:٥٣).

علينا أن نقرأ ديننا جيداً، وواقعنا بعد ذلك، وأن لا نقذف بأبناء المسلمين

في حمامات الدم، معتمدين على سوء فهمنا لبعض الآيات القرآنية، فالقرآن كتاب يخاطب العقل، ويحترم قوانين الحياة، ويؤمن بضرورة التكافؤ إلى حد ما في المواجهات، قال تعالى: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٦٦﴾ (الأنفال:٦٦).

وليكن شعارنا – بعد اليوم – هو التوبة، والنقد الذاتي لأنفسنا، لما هي عليه من الوهن والخور والجهل والتخلف، قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ (النور: من الآية٣١).

ولنعلم أخيراً: أننا بالعلم نستطيع أن نفتح العالم، وأن لغة الحوار تفتح لنا قلوب الناس، فنستغني عن مواجهتهم، وأن الصفح والغفران يحول أعداءنا إلى أصدقاء وأحباب لنا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ (فصلت:٣٤)، وليكن خطابنا الديني خطاباً حضارياً تنويرياً ينتفع الناس به، ويلائم أحوالهم، ولا يكلفهم فوق طاقتهم، قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾ (التغابن:١٦)، ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٠﴾ (المزمل:٢٠)، ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٠﴾ (البقرة:١١٠)، ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٢٣٧﴾ (البقرة:٢٣٧)، ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٢٦٥﴾ (البقرة:٢٦٥).

الخاتمة

عرضت في هذا البحث: (مراعاة مقتضى الحال في القرآن الكريم وجه من وجوه إعجازه)، رؤية جديدة إلى قضية بالغة الأهمية من أجل خطاب قرآني فاعل في عصرنا، وهي قضية بلاغية، حاولت جهدي أن ألم بما قال عنها السلف الأجلة، وأن أضيف إلى ما قالوا ما يمكن إضافته بهذا الخصوص.

وتكون هذا البحث من: مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

تناولت في المقدمة أهمية البحث وخطته.

وفي التمهيد تحدثت عن أهمية مراعاة مقتضى الحال في الخطاب القرآني، وأن لها دائرتين: الأولى: حين نزوله، وقد انقضت وانتهت، والثانية: ما بعد عصر النزول إلى قيام الساعة، فعلى كل مسلم أن يقرأ القرآن وكأنه يتنزل الآن من السماء، لأنه خطاب إلهي لكل البشر على مختلف بيئاتهم.

وفي المبحث الأول: مقتضى الحال في تراثنا اللغوي والأدبي والبلاغي. ذكرت فيه تعريفات عامة للبلاغة، يستدل منها على ضرورة مراعاة مقتضى الحال، وتحدثت عن مقتضى الحال في تراثنا، ثم عن مآخذ على بعض الشعراء في عدم مراعاتهم أحيانا لمقتضى الحال.

وفي المبحث الثاني: مراعاة مقتضى الحال في القرآن الكريم، وعلاقتها بالإعجاز في تراث أهل العلم. تحدثت عن مراعاة القرآن أحوال الإنسان وتكوينه الجسدي والروحي، ومراعاته لأحوال البيئة العربية التي نزل فيها، ومراعاته لأحوال الإنسانية في شتى الأزمان والأمكنة، وتحدثت عن إعجاز القرآن الكريم وصلته بمقتضى الحال.

وفي المبحث الثالث: نحو نظرة جديدة إلى مقتضى الحال في القرآن الكريم. تحدثت عن المدارس التي تتعامل مع القرآن، ودعوت إلى اتجاه جديد في مسألة مقتضى الحال، وبينت المقصود بمراعاة مقتضى الحال في العصر الحديث، ودعوت إلى رؤية جديدة لفهم القرآن وعلومه، وعرض جديد

لموضوعات القرآن يناسب العصر، وضرورة استيعاب مشكلات الإنسان المعاصر وحلها من خلال القرآن، وتحدثت عن النماذج الإنسانية الخالدة التي ذكرها القرآن، ونبهت إلى أهمية العرض الميسر لبلاغة القرآن، وتحدثت عن نظم القرآن، وعن قاعدة في إحصاء المفردات القرآنية وعلاقتها بمقتضى الحال، وعن الظروف الزمانية والمكانية وقت التنزيل.

وأهم النتائج التي توصلت إليها:

- أولاً: أهمية الاسترشاد بعلوم البلاغة في فهم القرآن.
- ثانياً: ضرورة تقديم منهج عصري يلائم مستويات معظم الناس المتواضعة في علوم اللغة والبلاغة.
- ثالثاً: ينبغي مراعاة أحوال الناس في العصر الحديث عند خطابهم بتعاليم القرآن، انسجاماً مع مراعاة القرآن لأحوال العرب عند نزوله.
- رابعاً: يستحسن الاستفادة من علوم الحاسب وتقنيات التعليم للبحث عن جواهر القرآن ومنهج تعامله مع الأشياء، والاسترشاد بنتائج البحوث في هذا الصدد عند مخاطبة الناس في العصر الحديث.
- خامساً: ضرورة وجود خطاب ديني حضاري متنور، يقود الحياة إلى بر الأمان ولا يصطدم بها.

والله الموفق، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المصادر والمـــــراجع

١) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، طبع مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الرابعة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٢) إعجاز القرآن، للباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة.

٣) أسرار البلاغة، للجرجاني، تحقيق ريتر، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٤) البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الرابعة، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٥) التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، حمادي صمود، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجامعة التونسية، ١٩٨١م.

٦) تاريخ آداب العرب،للرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٧) التلخيص، للخطيب القزويني، شرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي.

٨) الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير للسيوطي، دار الفكر.

٩) الحيوان، للجاحظ، طبعة الحلبي.

١٠) دلائل الإعجاز، للجرجاني، تحقيق محود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة..

١١) ديوان المتنبي بشرح العكبري، صححه مصطفى السقا، وإبراهيم البياري، وعبد الحفيظ شلبي، دار الفكر.

١٢) الشعر والشعراء، لابن قتيبة، راجعه محمد العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

١٣) الصحة النفسية والعلاج النفسي، د. حامد زهران، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.

١٤) فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر، نعيم الحمصي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١٥) كتاب الصناعتين، للعسكري، تحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١٦) الكشاف، للزمخشري، تحقيق مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١٧) العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٨) معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، صححه محمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٩) مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٢٠) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، نشر المكتبة الإسلامية، إستانبول.

٢١) مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني، دار الفكر.

٢٢) الموشح، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة.